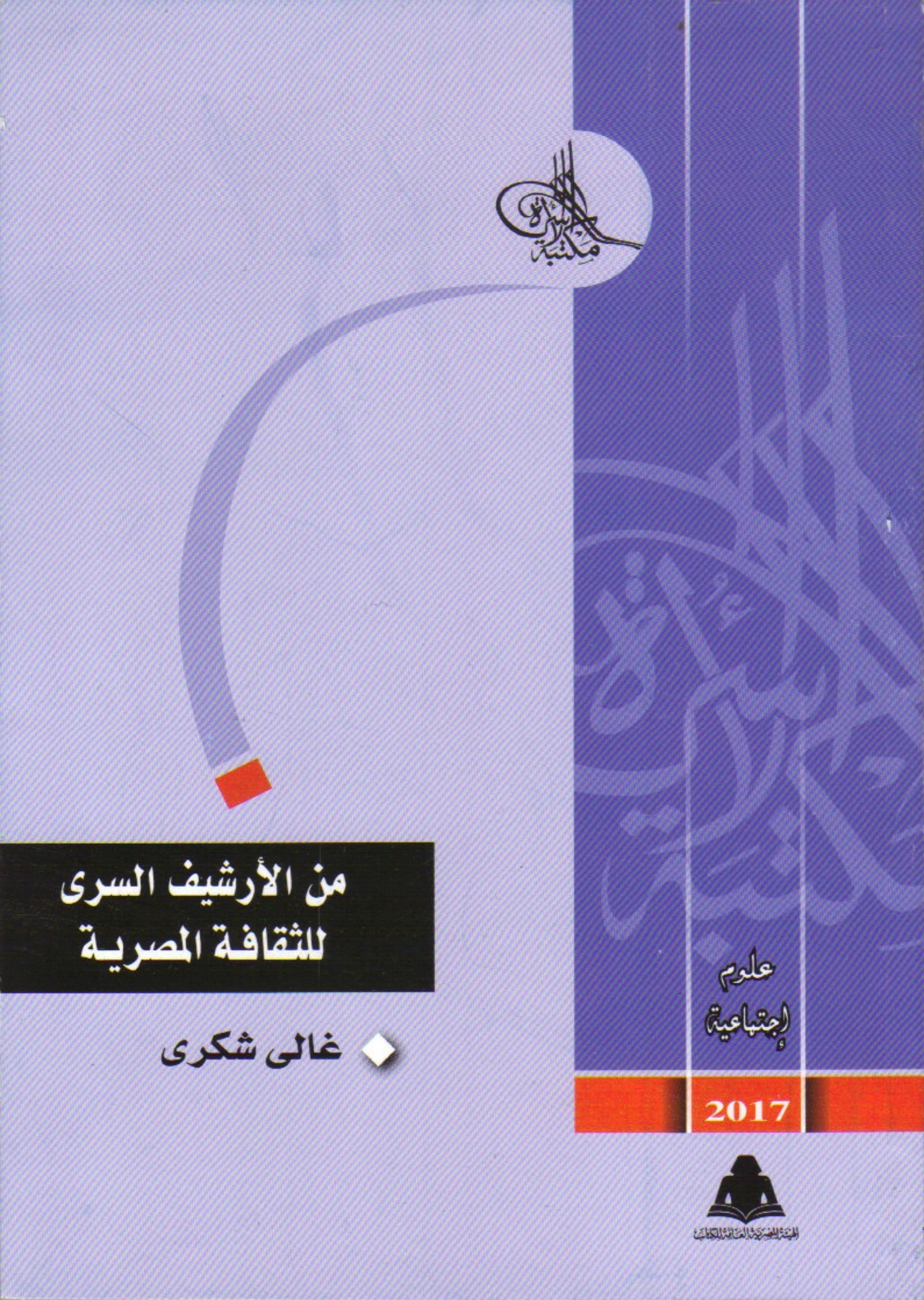


مكتبة الأسرة
من الأرشيف السرى
للثقافة المصرية
غالى شكرى
علوم
إجتماعية
2017

من الأرشيف السرى
للثقافة المصرية


مكتبة الأسرة
٢٠١٧

من الأرشيف السرى للثقافة المصرية

غالى شكرى



شكرى، غالى.
مـن الأرشـيف السـرى للثقافـة المصرية/ غالى شـكرى . ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨.
١٤٤ص؛ ٢٠سم.
تدمك ١ ـ ١٨٨٧ ـ ٩١ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ الثقافة العربية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٣٤ / ٢٠١٨
I.S.B.N 978- 977- 91-1887-1
ديوى ٣٠١,٢٠٩٥٣

توطئة

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنسانى - يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة

تتجلى علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًّا وثقافيًّا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

مقدمة

الملف الممنوع من الفتح

فى كتابه الصغير «عودة الوعى» طالب توفيق الحكيم بفتح ملفات السنوات العشرين الماضية، كان يقصد ـ أساسًا ـ ملف التجربة الناصرية.

ودعوة الحكيم مشروعة لأكثر من سبب.. فقد اعتمدت غالبية التحليلات لثورة ٢٣ يوليو على الشعارات المطروحة أو على الوقائع المرئية أو على المعرفة المباشرة ببعض الرجال.

وهذا كله ليس كافيًا لتقييم مسيرة عشرين عامًا، وإنما لا بد من التعرف على الكواليس قبل مشاهدة العرض النهائى على خشبة المسرح، لا بد من معاينة المطبخ قبل رؤية الطعام على المائدة.

وفى كتابه «عودة الوعى» لم يفتح الحكيم ملفًا واحدًا من الملفات الكثيرة التى يحتفظ بها.. فالرجل لم يكن بعيدًا عن الأحداث بالقدر الذى يوهم به نفسه والآخرين. كان قريبًا غاية القرب فى بعض الفترات من غرفة العمليات؛ لذلك جاء اكتفاؤه بالدعوة إلى

فتح الملفات غريبًا بعض الشيء، وهكذا شارك ـ بوعى أو دون وعى ـ فى الحملة الضارية على التجربة التى كان ـ بلا شك ـ أحد أركانها على صعيد الفكر والفن. حتى حين كان ينقد النظام لم يكن خارجه. أما الذين شنوا الحملة بعد رحيل عبد الناصر، فقد كانوا جميعًا وبغير استثناء من معسكر الثورة المضادة.

وكاد الخيط الرفيع أن يختفى بين ما أراده الحكيم وما يريده يوسف السباعى أو صالح جودت أو أنيس منصور أو موسى صبرى.. ذلك أن الحكيم فى كتابه الصغير ترك الباب مفتوحًا أمامهم جميعًا، لجأ إلى التعميم واختيار التفاصيل الثانوية والوقائع الهامشية.

ولم يفتح الحكيم أخطر الملفات على الإطلاق، ولم يشر بفتحه: ملف «اليمين المصرى» الذى استطاع فى أحيان كثيرة أن يحتوى الثورة من الداخل، وأن يفتح الثغرات الحقيقية التى نفذت منها الخطايا والجرائم..

إن الناصريين الذين دافعوا عن ثورة ٢٣ يوليو بمنطق صوابها المطلق وخلوها من السلبيات يقعون فى خطأ فادح.. وكذلك الذين ساووا بين الحكيم وبقية الذين هاجموا عبد الناصر. **لقد كانت السلبيات فى التجربة الناصرية ولا تزال من الحقائق التاريخية الدامغة.. وأهم هذه السلبيات هى الجيوب اليمينية فى النظام، وقد ولد بعضها معه وانضم إليها البعض الآخر فى هذه المحطة أو تلك.**

ولعل أبرز هذه الجيوب وأوضحها كانت فى حقل الثقافة

والإعلام، للطبيعة الخاصة التى يتميز بها هذا الحقل، وهى أنه يقع تحت الأضواء مباشرة، ولطواعية السلعة الثقافية فى التحول والتخفى على غير الثبات النسبى والصلابة التى تميز الميادين الاقتصادية والاجتماعية.

ولا شك أنه لدى كل مثقف مصرى ملفه لخاص، كمجموعة من الذكريات أو الملاحظات أو الاعترافات التى سجلها فى ذهنه أو على الورق فى هذه المرحلة أو تلك من مراحل الثقافة المصرية.

ولم يكن «عودة الوعى» نموذجًا لهذا النوع من التسجيلات الخاصة التى عودنا عليها الحكيم فى «زهرة العمر» و «سجن العمر»، وإنما كان منشورًا مفتعلاً لا يليق بكاتب كبير أن يضطر أو ينزلق إلى كتابته. والحق أننا لا زلنا ننتظر من توفيق الحكيم وغيره أن يكتبوا لنا ذكرياتهم الحقيقية التى تفسر لنا - على الأقل - أعمالهم الفكرية والفنية طيلة الحقبة الماضية. إن الافتعال فى كتيب «عودة الوعى» هو أنه يقف شاهدًا مضادًا لأعمال صاحبه السابقة على مدى عشرين عامًا.

وربما كنت واحدًا من أبناء الجيل الذى عاصر «المعركة» السرية والمعلنة بين مثقفى اليمين وبقية صفوف الثقافة الوطنية التقدمية. وقد أتيح لى فى مختلف الظروف والمواقع أن أكون قريبًا من الأحداث والشخصيات الصانعة لها. وهى أحداث ومواقف تعرفها أغلبية المثقفين، ولكن أحدًا لا يكتبها.. ربما لأن العرف السائد هو عدم التعرض للأحياء، إذا بادر أحدهم إلى «التذكر» ولأن الجميع

ينتظرون موت الجميع، فإن الجميع لا «يتذكرون».

وهذا الكتاب مجرد قطرة فى بحر الخطايا والجرائم التى ارتكبها اليمين المصرى ضد الثقافة والمثقفين.. فالملف الكامل ما زال ممنوعًا من الفتح، لأن الذين يملكونه ليسوا طرفًا واحدًا، ولا يملك الفرد منا أكثر من بضعة أسطر أو قليل من الصفحات.

وعلى من يريدون فتح ملف ثورة يوليو أن يفتحوا كل الملفات..

حينذاك سوف تتبدى حقيقة اليمين المصرى الذى يطالب الآن بمراجعة الماضى ومناقشته.. وسيكون الطرف الوحيد الذى يحرق الملفات ويطويها للأبد، لأنه كان وما زال المتهم بل المجرم الوحيد.

فاكتبوا الآن قبل غد، يا من تعرفون أكثر منى.. اكتبوا قبل أن يجف المداد فى عروق الأيدى(*).

غالى شكرى

بيروت - يناير (كانون الثانى) ١٩٧٥

(*) يهم الكاتب أن يشير إلى أن الفصل الخاص بالشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى فى هذا الكتاب إنما يقصد به إبراز «المناخ» الثقافى فى مصر، والذى استدرج شاعرًا كبيرًا إلى منزلقات الخطأ.

الأدباء يعقدون مؤتمر چنيف

الزمن: شتاء ١٩٧٢.

المكان: الطابق السادس بجريدة «الأهرام» بالقاهرة.

وصوت توفيق الحكيم على الطرف الآخر من سماعة التليفون، يقول لى بصوت عالٍ، ولكنه متقطع:

- اسمع.. أنا بعتلك آنسة ظريفة، مصرية من أمريكا، تريد أن تتعرف عليك وعلى الجماعة فى «الطليعة».. بتحب الثقافة والسياسة.. دكتوراه من «هارفارد».. ياللا ياعم.. ابسط!

وظننت أنها إحدى مداعبات الحكيم، ردًا على المشاغبات التليفونية الدائمة بيننا، ولكنى بعد أقل من دقيقة واحدة رأيت أمامى فتاة لها وجه طفلة وجسد متضخم.. سريعة الكلام

بالإنجليزية ركيكة الفهم للعربية، لا تطيل عبارات التعارف الأولية، وكأنها صاحبة بيت تجلس قائلة بلا مبالاة لدهشتك:

- أنا سناء حسن.. أعد دراسة للجامعة حول مواقف الثقافة المصرية المعاصرة من أهم القضايا التى تعنى الإنسان المصرى وتقلق مصيره حتى ولو لم يكن واعيًا بها..

ولا ترد عليك حين تقاطعها مستفسرًا ماذا تشرب، وإنما تستمر كطوفان بلهجة أمريكية حاسمة:

- قابلت المسئولين السابقين والحاليين: محمود فوزى، عزيز صدقى، زكريا محى الدين.. إلخ.

ويقاطعنا صوت التليفون، وأقول لها:

- مكتب هيكل يطلبك.. موعدك معه الآن.

بعربية مكسرة تردد كما أن الأمر لا يعنيها:

- معلش.. بعدين.. المهم، هناك أعداد كثيرة من «الطليعة» احتاجها.. أريد كتبك، خصوصًا المصادرة، لدى أسئلة أطلب منك جوابًا عنها...

ثم..

دارت على جميع الزملاء و «الأسطوانة» هى هى.. أقبلت حوادث الطلبة والمثقفين فزادت سناء من تحركاتها رغم العرج الخفيف فى إحدى ساقيها الثقيلتين بالطبيعة.

وسألت عنها..

قيل لى إنها ابنة أحد باشوات مصر السابقين وكان سفيرنا فى واشنطن أيام الملك. وقد ولدت فى أمريكا وعاشت. وهى تزور مصر للمرة الأولى بتوجيه من أستاذها الصهيونى المعروف «صفران».

ولكن هذا كله لم يضع يدى على ««المفتاح» السحرى الذى يفتح لها أبواب الكبار فى مصر.

ثم سافرت أنا إلى بيروت، وتركتها بالقاهرة، ولم يعد يعنينى من أمرها شىء..

حتى فاجأنى أحد الأصدقاء بأن «تحسين بشير» - مساعد المستشار الصحفى لرئاسة الجمهورية حينذاك - قد تزوج، فلما سألته مَنْ تزوج هذا العازب الخالد، أجابنى «سناء حسن»!

دهشت فترة قصيرة - لفارق السن بينهما فقط - وسرعان ما نسيت الموضوع.

إلى أن كانت المفاجأة الحقيقية، وإذا «بالنيويورك تايمز» تنشر مقالاً لسناء حسن فى مكان بارز مرفقًا بصورتها (الوجه فقط طبعًا)..

كانت المفاجأة بالنسبة إلىَّ أن تفرد الصحيفة الأمريكية الكبرى حيزًا - أى حيز - لقلم بنت مصرية مغمورة لا يعرفها أحد.. مجرد طالبة ذكية بالدراسات العليا بإحدى جامعات الولايات المتحدة استقبلها السياسيون المصريون - ربما - بهذه الروح لا أكثر.

ولكن مقال «النيويورك تايمز» كان مثيرًا .. وكأنه لكاتب عتيد متمرس على المصطلحات السياسية والخبرة بالفكر السياسى. راحت سناء تقول:

- آن الأوان ليفهم العرب أن إسرائيل «أمر واقع» لا بد من الاعتراف به.. لا دبلوماسيًا فحسب، بل ثقافيًا وتجاريًا وسياحيًا. وعلى العرب أن ينهلوا من المعين الحضارى لإسرائيل لا من الغرب فهى أقرب.

- آن الأوان ليفهم العرب أن الحروب لا تحل المشكلات المعلقة بينهم وبين جارتهم المتفوقة ديموقراطيًا وحضاريًا، وإنما «السلام» هو القدر الوحيد الذى يجدر بهم - أى العرب - الوعى به بدلاً من سلوك الطريق «الأوديبى» الأعمى.

- لقد أخطأ العرب فى حق الحضارة والتقدم والتاريخ برفضهم التقسيم عام ١٩٤٧ وما زالوا يخطئون بالإرهاب الهمجى الذى يشنونه بين الحين والآخر سواء أكان إرهابًا منظمًا بواسطة الجيوش أم إرهابًا فوضويًا بواسطة المنظمات غير المسئولة.

- والحل الواقعى هو توطين الفلسطينيين فى الدول العربية وقيام كيان رسمى لهم ضمن المملكة الأردنية والاعتراف العربى الشامل بالدولة اليهودية.

بعد هذا المقال مباشرة اهتمت الإذاعات ومحطات التلفزيون الأمريكية بسناء حسن اهتمامًا مثيرًا، وعقدت بينها وبين المثقفين اليهود لقاءات حية بالميكروفون وعلى الشاشة الصغيرة ودعتها

الجامعات لإلقاء المحاضرات حول أفكارها، وأصبحت «نجمة» فى فترة قياسية..

وذات صباح، حملق القنصل الإسرائيلى فى نيويورك فى جواز السفر المصرى المقدم إليه من «سناء حسن» تطلب تأشيرة دخول إلى إسرائيل..

وذات صباح آخر، حملق ضابط إسرائيلى فى مطار اللد فى نفس الجواز..

ودخلت سناء حسن إسرائيل..

وكان التعليق المصرى الوحيد على كل هذا الضجيج هو إعلان تحسين بشير أنه طلقها..

ولكن أحداً فى مصر لم يراجع تحركات سناء حسن الواسعة داخل مصر فى شتاء ١٩٧٢ وربيع ١٩٧٣..

لم ينتبه أحد إلى طبيعة «المهمة» - الثقافية!! - التى فتحت لها كل الأبواب المغلقة..

وكان أحد هذه الأبواب أرشيف جريدة «الأهرام»، فقد كان فى هذا الأرشيف كنز لا يخطر على بال، ضمته حقيبة سناء حسن بهدوء شديد..

هذا الكنز هو ملف الندوة الكاملة التى جرت بين الرئيس معمر القذافى ومجموعة من ألمع الكتّاب المصريين.. وكانت «الأهرام» قد نشرت ملخصاً حول القسم الأول من الندوة عن الإسلام والشيوعية

والرأسمالية. ولكن القسم الثانى لم ينشر إلى الآن، ويدور حول مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى. وكان سبب عدم النشر أن اثنين من كبار الكتَّاب المصريين ـ هما: توفيق الحكيم، وحسين فوزى ـ قالا بالحرف الواحد إنهما يريان الصلح مع إسرائيل هو المخرج الوحيد من الأزمة!!

ورأى هيكل فى ذلك الوقت أنه لا ضرورة لنشر هذا الكلام الذى فاجأ القذافى مفاجأة صاعقة!!

والسؤال الآن أوجهه إلى أستاذنا توفيق الحكيم: لماذا كنت نشيطًا فى تعريف سناء حسن بالمثقفين المصريين يا صاحب «عودة الوعى»؟ لماذا؟ ألم يئن الأوان لتروى القصة من البداية.. فالأرجح أن سناء حسن سوف تكتب النهاية حين تنشر محاضر الندوة التى أعلنت فيها بصراحة تحسد عليها (أنت ورفيق نضالك حسين فوزى) أن الصلح مع إسرائيل هو الحل الوحيد.. وأما الفلسطينيون فليحلوا مشكلتهم بأنفسهم!!

* * *

والفلسطينيون يحلون مشكلتهم بأنفسهم، ولكن بعضهم ممن لمعت وجوههم داخل الأرض المحتلة على نيران «المقاومة». ورحنا ننحت لهم التماثيل فى أعظم ميادين العرب: قلوبهم، هؤلاء كانوا على موعد مع سناء حسن. إنها وقد عثرت على «كنز» الندوة الأهرامية فى مصر كوثيقة ترفعها فى وجه «الصقور» داخل إسرائيل قائلة إن «أكبر المثقفين المصريين» يطلبون الصلح معكم من

زمـان، من قـبل الحـرب.. هـا هـى تـذهب إلى الـطـرف الآخـر «الفلسطينى» الذى ينشد الأناشيد فتتغنى بها الأمة العربية من الخليج إلى المحيط.. إنها فى طريقها إلى من يسمون أنفسهم أو يسميهم البعض «شعراء المقاومة».

إنها تذهب إليهم وفى يدها نسخة من مسرحية سميح القاسم «كيف رد الرابى مندل على تلاميذه» وهى المسرحية التى ترجمت إلى معظم لغات العالم الحية على «الستنسل» وكأنها منشور ثورى. والمسرحية المذكورة عبارة عن مقال سياسى مباشر مقسم إلى ثلاثة أدوار: أحدهما عربى «رضوان»، والثانى إسرائيلى «شلومو»، والثالث دولى «العالم».. يقتتل العربى والإسرائيلى حين يدعى كلاهما ملكية الحديقة «فلسطين» ويتدخل «العالم» مرة بإمداد الطرفين بالسلاح ومرة أخرى بأغصان الزيتون. ويتلاحم العربى والإسرائيلى مرة جداً وأخرى لعباً. وينتهى بهما الأمر لأن يستمعا إلى نصيحة «العالم» القائلة:

«حوار عقيم لا طائل من تحته، كلاكما هنا، حقيقة واضحة وأمر واقع. والسؤال المهم، هو كيف يمكن العمل على أن تكون إقامتكما هنا طيبة وهادئة ومثمرة. هذا هو السؤال».

والعربى ـ رضوان ـ يحب راحيل ودافيد: ليثبت أنه ليس معادياً للسامية. ويجيد العبرية أيضاً. يحب راحيل لزرقة عينيها، ويحب دافيد، لأنه يؤمن بوحدة الطبقة العاملة سواء أكان العامل يهودياً أم عربياً.

وسميح القاسم فى هذه المسرحية ليس مجرد مؤلف مسرحى، إنه وزملاؤه «شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة»!! يشتغلون بالسياسة، وما يقوله ليس رأيًا فرديًا وإنما هو تيار يدعو - صراحة - إلى الاعتراف بالكيان الصهيونى من جانب العرب الذين يتحتم عليهم إلقاء السلاح والاحتكام إلى «العقل».. وهو التيار الذى يتهم المقاومة الفلسطينية علنًا بتخريب فرص السلام. ففى «نداء عاجل إلى شعوب المنطقة والعالم» كتب حنا إبراهيم وسميح القاسم وعصام العباسى وسالم جبران ونزيه خير، ونشرته جريدة «الاتحاد» التى تصدر بالعربية، بتاريخ ٧ - ٦ - ١٩٧٤ما نصه:

«نحن - الموقعين - أدناه، من الكتّاب العرب واليهود، مواطنى إسرائيل، نتوجه بهذا إلى شعوب المنطقة والعالم للعمل معًا وبصورة فردية، على إيقاف جميع أعمال الإرهاب والعنف نهائيًا، ضد النساء والأطفال خاصة وضد السكان المدنيين عامة، ونقرر:

١ - أن استعمال طرق الإرهاب، الشخصية أو الجماعية، فى المنطقة أو فى العالم، لنيل أهداف - أيًا كان نوعها - يسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية والسياسية والدولية والإقليمية.

٢ - إنه لا يمكن لأية قضية من قضايا المنطقة أن تحل عن طريق العنف أو القتال.

٣ - إن المنظمات المسلحة والحكومات مناشدة بهذا أن تتخلى عن كل استعمال للعنف ضد المدنيين وأن تتهيأ لمحادثات سياسية.

وبعد أن تحقق المنظمات والحكومات هذا الشرط ـ فإن الأطراف مدعوة إلى الاعتراف أحدها بالآخر ولابتدار محادثات السلام.

٤ - إن الحكومات أو الجيوش أو المنظمات المسلحة التى تقيم عن قصد أهدافًا عسكرية وسط تجمعات السكان المدنيين، مسئولة بصورة مباشرة عن كل إصابة تلحق بمدنييها، بمستوى ليس دون مستوى مسئولية أية قوة معادية تستهدفها بإصابتها حيثما كانت.

٥ - إن جميع حكومات المنطقة مدعوة إلى الاعتراف بحق جميع شعوب المنطقة ودولها فى تقرير مصيرها، وبحقه فى العيش بسلام وأمن ـ وفى مقدمة ذلك حق الشعب اليهودى فى دولة إسرائيل، والشعب العربى الفلسطينى فى دولته.

٦ - أن هذه المنطقة تعانى هستيريا سنين طويلة، حيث أصبحت الأعمال التحت ـ بشرية فيها جزءًا لا يتجزأ منها. وهذه الهستيريا ناتجة ـ مما نتجت عنه ـ عن الصورة التى تدار بها الشئون السياسية فى هذه المنطقة على جانبى الحدود.

٧ - حل هذه القضية بصورة جذرية لن يبدأ إلا حين يبتدر حوار مباشر وجوهرى بين الشعبين، لوضع حد للنزاع الطويل واللاضرورى هذا.

٨ - هذا الحوار الجذرى يمكن أن يبتدر إليه بالفعل، بمعونة جماعة واحدة معينة، على جانبى الحدود هى: الكتّاب والمثقفون العرب واليهود.

٩ - إن على حكومات المنطقة أن تساعد الكتَّاب والمفكرين، أفرادًا وجماعات، بالمبادرة لعقد لقاءات إسرائيلية عربية فى دول محايدة لإعداد الخلفية السيكولوجية والمناخية - بعد فصل القوات - لنجاح مؤتمر چنيف».

وكان البيان قد تصدرته هذه السطور:

«يرجى من الكتَّاب والمفكرين فى إسرائيل وفى الدول العربية وفى العالم أجمع - الذين يودون الإعراب عن تجاوبهم مع هذا النداء أو الانضمام إليه أو المساعدة على نشره، وكذلك ممن يود الإسهام فى تمويل نشر هذا الإعلان فى صحف أخرى، فى إسرائيل وخارجها، أن يتوجهوا إلى العنوان التالى: .... تل أبيب»(*).

وليس البيان - على هذا النحو - منشورًا سريًا ولا مقالاً عابرًا، وإنما هو - على حد تعبير محمود درويش - «إعلان عن بداية نشاط عالمى لاستقطاب أكبر قدر من تأييد الأهداف التى تضمنها النداء العاجل».

ولم يكن غريبًا أن تطلب سناء حسن أن تكون أول فقرة فى برنامج زيارتها فى إسرائيل هو مقابلة سميح القاسم و «رفاقه».. بل إن أول اجتماع عمل كان لقاء بين الموقعين على البيان من الفلسطينيين والإسرائيليين. وليس هذا كله، مهمًا!

وإنما البيان قد وجد طريقه فورًا إلى الاستجابة.. نشرته وطبعته

(*) تخلى سميح القاسم فيما بعد عن توقيعه على هذا البيان بعد أن استنكرته جريدة «الاتحاد» الشيوعية، كما أدانه الشاعر توفيق زياد.

صحف سرية ومطابع تحت الأرض، وأذاعته مختلف الراديوهات التى يعرف موجاتها القليلون.

ولكن أول الغيث كان من القاهرة، وكان غيثًا علنيًا إلى أقصى الحدود..

ولم يجئ الغيث من توفيق الحكيم الذى كان مشغولاً بالسؤال عن كيفية تحويل ٤٠ ألف ليرة لبنانية ثمنًا لكتابه «عودة الوعى» الذى يسب فيه عهد جمال عبد الناصر..

ولم يجئ أيضًا من حسين فوزى الذى كان مشغولاً باختيار عنوان «ملاك الإرهاب» كتابه الجديد عن عبد الناصر أيضًا..

لم يجئ الغيث من أحدهما رغم أنهما «على الخط» مع البيان «الفلسطينى» - الإسرائيلى المضاد للمقاومة والداعى إلى الصلح.

وإنما هطل الغيث من كاتب طلب الراحة مؤخرًا من المناصب الإدارية ليتفرغ للكتابة، ويبدو أنه طلب الراحة من عناء «الموقف السياسى» فآثر «أمس واليوم وغدًا».

جاء أول الغيث من إحسان عبد القدوس. ولست أعرف ما إذا كان إحسان أحد الذين قابلتهم سناء حسن بين أواخر (٧٢) وأوائل (٧٣) وما إذا كانت هناك علاقة شخصية تربطه ببعض «شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة»..

ولكن الشىء المؤكد أن هناك تطابقًا مثيرًا بين أولى مقالات إحسان التى نشرها فى «أهرام» الجمعة (٢ - ٨ - ١٩٧٤) ومعظم

الأفكار التى وردت فى بيان «المقاومين من أجل الاعتراف بإسرائيل» سواء أكانوا الشعراء الفلسطينيين أم تلميذة هارفارد. كذلك فإن إحسان لم يحضر «ندوة الاهرام» التى شهدت حماس الحكيم وفوزى للصلح مع إسرائيل، ولكن المؤكد أيضًا أن ما بينه وبينهما أكثر من توارد خواطر..

.. فإحسان، بطريقة أشبه ما تكون بأسلوب سميح القاسم فى مسرحيته المذكورة أى بطريقة المقال السياسى المصاغ أدبيًا، كتب تحت عنوان «أين صديقتى اليهودية؟» قصة طريفة مهد لها بذكاء مرهف عن تجربته مع الخلق الفنى، وكيف أن هناك شخصيات واقعية توحى إليه بالفكرة أو الرأى الذى يريد أن يقوله فى القصة أو الرواية. ومن بين هذه الشخصيات «جلاديس» الفتاة اليهودية التى كانت جارته فى العباسية منذ الطفولة إلى الصبا.

وكما لو أن إحسان يريد أن يفتح «ملفاته» أمام إحدى الجهات لطلب التبرئة من تهمة لم ينسبها إليه أحد، يذكرنا بقصته القديمة «بعيدًا عن الأرض» التى استلهم فيها شخصية جلاديس وألبسها ثيابًا أمريكية يهودية، وأصبحت ـ فى القصة ـ فتاة يهودية جميلة تجذب إلى غرامها شابًا عربيًا من مصر. ويدور بين القلبين ـ أو العقلين؟ ـ حوار عنيف مؤداه أن الحرب بين اليهود والعرب تحول دون الحب. وقد جرب كلاهما أن ينسى الآخر، رغم أنها جندت فى إسرائيل، وجند هو فى مصر. قبل ذلك؛ قالت له: سأقتلك.

«قال:

- سأعفيك من قتلى.. سأقتلك أولاً..

ودفنت وجهها فى عنقه وهمست:

- يا حبيبى..

وافترقنا..

ووقف بسلاحه على خط النار.. أن الرصاصة التى يطلقها قد تصيب ماريا، والرصاصة التى تقتله قد تكون رصاصة ماريا.. ولكنه لا يريد أن يقتل ماريا، أنه يريد أن يقتل ساسون.. ساسون الذى استولى على ماريا، فى نيويورك وأرسلها لتجند فى الهاجاناه.. يريد أن يقتل الصهيونية لا اليهود.. وقتل.. وأسهم فى معركة أسدود، ونال وسامًا.. وانتهت الحرب.

وبعد خمس سنوات، سافر فى عمله مر أخرى إلى نيويورك.. والتقى صدفة بماريا، وسألها فى دهشة:

- متى جئت إلى نيويورك...؟

وقالت:

- إنى أقيم هنا..

قال:

- منذ متى؟

قالت:

- منذ خمس سنوات..

قال:

-.وإسرائيل؟

قالت فى حدة:

- إنى أمريكية..

- وإسرائيل؟

قالت وهى تنظر إلى بوز حذائها:

- تركتها..

قال وبين شفتيه ابتسامة شامتة:

- لماذا؟

قالت ساخرة:

- لأنى لا أستطيع أن أقتلك..»

نشر إحسان هذه القصة عام ١٩٥١ أى غداة النكبة مباشرة. وهى رغم التزاويق العاطفية قصة سياسية ترى الحرب - أى حرب! - اغتيالاً للحب، أى حب!

كانت «ماريا» وجهًا أمريكيًا لجلاديس اليهودية التى عرفها إحسان فى صباه، والتى استوحى منها - كما يقول - العديد من قصصه. ثم سافرت جلاديس عام ١٩٥٦ إلى إسرائيل واكتسبت جنسيتها. ونساها إحسان تمامًا.

إلى أن كان هذا الصيف حين أراد أن يمضى إجازته بعيداً عن السياسة والأصدقاء والمعارف، فاختار إحدى الجزر فى المحيط الأطلسى فى موازاة الساحل الإفريقى تدعى جزيرة «ماديرا»..

وهناك رأى جلاديس (صدفة أيضًا!) امرأة فى السادسة والخمسين، تبيع الأحذية فى أحد المتاجر، حصلت على الجنسية البرتغالية والفرنسية بالإضافة إلى الإسرائيلية. ويدور بينهما هذا الحوار:

- لا يمكن.. إنى أعرف أول سؤال ستواجهنى به.. لماذا تركت مصر.. أن مجرد هذا السؤال يدمى ذكرياتى..

قلت:

- لا.. لن أسألك لماذا تركت مصر، ولكنى أسألك.. لماذا لا تعودين إلى مصر..

قالت:

- إنه سؤال مجاملة بالأسلوب المصرى كأن تقول لأحد المارة اتفضل.. اتفضل شاى.. ولا تفضل لأحسست بنكبة تقع على رأسك..

قلت وشهوة التطلع واكتشاف الواقع تجتاحنى:

- أنا لا أجامل.. إنى أتمنى فعلاً أن تعودى إلينا..

قالت وابتسامتها الضعيفة تنضح بالحسرة:

ـ إذن فقد تغيرت.. ليست هذه طبيعتك.. ولا طبيعة أى مصرى.. هل تقبل عودة الزوجة الخائنة إلى زوجها..قلت:

ـ قد لا تكون خائنة.. قد تكون قد اعتدى عليها أو غرر بها.. المهم ألا تكون الخيانة من طبيعتها..

قالت:

ـ وهل يقبلوننى فى مصر..

قلت:

ـ لماذا لا يقبلونك..

قالت:

ـ لأنى يهودية..

قلت:

ـ إن كيسنجر يهودى، ورغم ذلك فهو صديق لنا كلنا..

قالت:

ـ إن كيسنجر يتحرك بصفته الرسمية لا بصفته يهوديًا.. إنه أشبه ببائع فى دكان، يرحب بالزبون ويخدمه، ولكن ليس على حساب صاحب المحل.. لو اشتريت منى حذاء الآن فسأنتقى لك أحسن ما عندى، وأضمن لك ألا يكون واسعًا ولا ضيقًا، ولكنى أكثر حرصًا على ألا يخسر صاحب المحل سكودس واحدًا (عملة ماديرا).. هذا ما يفعله كيسنجر بينكم وبين إسرائيل.. وأنا.. أنا

شيء آخر.. أنا واحدة من الناس.. وكنت واحدة منكم فى مصر.. ثم كنت واحدة من الناس فى إسرائيل.. ومن أدراك.. ربما كنت أحارب معهم..

قلت لمجرد أن أشدها إلى مزيد من الكلام:

- ولكن كيسنجر حارب مع إسرائيل أيضًا، كان هو الذى يضغط على وزير الدفاع الأمريكى ليحارب معهم، وكان نيكسون يؤيده.. ثم انتهت الحرب.. وأصبح كيسنجر ونيكسون صديقين لنا.

قالت وابتسامتها الضعيفة تنقلب إلى ابتسامة ساخرة:

- هل تعتقد أن الحرب انتهت..

وتوقفت برهة عن الكلام.. لم يعد هذا الأسلوب ينفع فى حديثى مع جلاديس ثم قلت:

- لا.. الحرب لم تنته..

قالت:

- هل تستطيع أن تحدد متى تنتهى؟

- لا.. لا أحد يستطيع..

قالت:

- أى أن الحرب قد تبدأ من جديد..

قلت:

- ربما..

قالت:

- وإذا بدأت فأين يقف كيسنجر منها؟

قلت:

- يحاول وقف إطلاق النار ليعود بنا إلى الحرب السياسية..

قالت وابتسامتها الساخرة تتسع:

- كن أكثر صراحة معى.. إن كيسنجر سيحارب معنا..أقصد مع اليهود... آسفة، أقصد مع إسرائيل.. قد يستقبل ليترك غيره يتحمل المسئولية، ولكنه لن يترك إسرائيل وحدها أبداً..

وسكت!

وعادت تقول:

- إذا كان هذا هو كيسنجر الصديق.. فماذا تطلب منى أنا..

قلت كأنى أهرب منها:

- لا شىء..»

هذا هو نص الحوار الواقعى كما كتبه إحسان عبد القدوس بنفسه. ولا فرق يكاد يذكر بين القصة «الفنية» التى كتبها منذ ربع قرن، والقصة «الواقعية» التى يرويها الآن، سوى أن الزمن قد ترك بصماته على المرأة وعليه، فلا غرام ولا هم يحزنون.

أى أن الرجل ـ إحقاقًا للحق ـ لم يتغير.. فهذا هو فكره حول الصراع العربى ـ الإسرائيلى منذ البداية. ولكن المشكلة الحقيقية التى تواجهنا مع إحسان هو أن كل شىء قد تغير حتى وإن لم يتغير هو. والمشكلة الثانية هى «التوقيت» الذى اختاره بعناية فائقة لنشر هذه الحكاية. والمشكلة الثالثة هى أن بعض ما جاء على لسان المرأة يكاد بالحرف هو رأى عبد القدوس فى كيسنجر ونيكسون وأمريكا.

* * *

ماذا تغير؟

تغير الفلسطينيون أولاً، فلم يعودوا «لاجئين» بل شعبًا ومقاومة. تغير العرب، وليس أدل من حرب أكتوبر على تغيرهم.تغير العالم فأصبح لقضيتنا أصدقاء واضحين وأعداء واضحين. المعسكر الاشتراكى وفى مقدمته الاتحاد السوفيتى هو الصديق الحقيقى، حليفنا الاستراتيجى. والمعسكر الاستعمارى وفى مقدمته الولايات المتحدة، هو العدو الحقيقى والحليف الاستراتيجى لإسرائيل.

ولكن إحسان يرى العكس. يرى أننا لا زلنا فى «دوامة الحرب» وكأنها حلقة مفرغة بلا معنى. ولا يرى الفلسطينيين ومقاومتهم الثورية على الإطلاق. ولكنه يرى كيسنجر الصديق الذى يتصرف على نحو رسمى لا بصفته يهوديًا. ولا يرى قوى التحرر والاشتراكية والاتحاد السوفيتى على الإطلاق. ولكنه يرى جلاديس وكأن لقاءهما هو المصير والقدر.

رؤية شىء أو عدم رؤيته، موقف.

وزمن الرؤية موقف.

ما موقف إحسان عبد القدوس؟

إنه ببساطة شديدة يعتقد مؤتمر چنيف الأدبى، ويجلس على مائدة واحدة مع سناء حسن وسميح القاسم والكتَّاب الإسرائيليين وكيسنجر وتوفيق الحكيم وحسين فوزى.

ويدير الحوار الذى لم يبدأ رسميًا بعد فى قصر الأمم..

يديره على صفحات الأهرام القاهرية والنهار اللبنانية والسياسية الكويتية، وما خفى من الإذاعات والصحف الأجنبية.

يديره بمنطق الاعتراف والصلح، بمنطق إدانة المقاومة بتجاهلها، بمنطق الهزيمة لا بمنطق السادس من أكتوبر، بمنطق الصديق كيسنجر وإدانة السوفيات، بمنطق المثقف المصرى المعزول فى برج من العاج لا علاقة له بالجماهير العربية..

وهو منطق أقلية ضئيلة لا تمثل إلا نفسها، ولكن الضجيج الذى تثيره بأقوى أجهزة الإعلام من شأنه أن يضخم الصوت.

الصوت «الآخر» لا الرأى الآخر ليس بالتأكيد صوتنا..

ليس صوت مصر، ولا فلسطين، ولا الأمة العربية، وإنما هو «النشاز» الذى يستوجب البحث عن أصله ومصدره.. يستوجب المحاكمة!

و...

ـ كنت أزور صديقًا فى أحد فنادق بيروت الكبيرة حين صادفنى مراسل أجنبى أعرفه ابتدرنى بقوله: سوف أعطيك سبقًا صحفيًا لا تحلم به هو فكرة لرسم كاريكاتورى: خط تليفونى يربط بين القاهرة وإحدى العواصم الأخرى، وفى أحد طرفى الخط أمسك بالسماعة إحسان عبد القدوس، وكانت على الطرف الآخر سناء حسن تقول ما معناه باللهجة المصرية:

ـ جريدة الأهرام.. الو.. أيوه يا إحسان.. أخبر أصدقائى، يا ناس يا عواجيز هنئونى.. لقد أصبحت أجيد العبرية فى مستوى سميح القاسم والله العظيم.

وهمس فى أذنى:

ـ لقد أدلى طالب إسرائيلى فى هارفارد بتصريح قال فيه إن فى حوزة سناء «وثائق» تؤكد إنها ليست صاحبة الصوت الوحيد الذى ينادى بالصلح مع إسرائيل، وإنما هناك مجموعة من أكبر العقول فى مصر تنادى بنفس الرأى..

وابتسمت فى داخلى وتذكرت كل شىء.

تذكرت أيضًا ما قد لا تعرفه سناء حسن.. تذكرت شابًا مصريًا كان طالبًا فى كلية الطب يدعى «وجيه غالى» وكان ينتمى إلى إحدى الحركات اليسارية، ولكنه استطاع الهرب إلى لندن. وهناك تلقفته إحدى «الجهات» وكانت تعرف ميوله الصحفية وموهبته الأدبية. واستطاعت أن تغريه بالسفر إلى إسرائيل، وعاد ليكتب مجموعة من التحقيقات المثيرة لجريدة «الصنداى تايمز» إلى جانب إسرائيل.

وزيادة فى التكريم والغواية شرت له رواية فى سلسلة بنجوين عن تعذيب فى سجون مصر. وما زالت الرواية فى المكتبات وعلى ظهر غلافها تعريف بوجيه غالى يقول إنه أول مصرى شجاع يزور إسرائيل ويكتب عنها بحرية كاملة.

ولكن هذا «الرائد الشجاع» وجد منذ عامين منتحراً فى إحدى غرف البنسيون الذى يقيم به فى لندن!! وترك رسالة بخط يده اعترف فيها بخطيئة العمر، أشارت إليها الصحف الإنجليزية بصورة عابرة؛ لأن البوليس احتفظ بها.. فلم تكن موجهة إلى أحد بالذات..

وهمست فى أذن المراسل الأجنبى: سوف أبادلك السبق الصحفى الكريم. أكتب. فتاة مصرية بالجامعة تدعى «سناء هاشم» أرسلت إلى إحسان عبد القدوس صباح السبت الماضى مكتوباً يقول «إننى طالبة أقرأ لك بانتظام، وأعد رسالة عنوانها (الإنسان العربى فى الرواية اليهودية). ويبدو أننا أكثر تحضراً - أو كذباً - من اليهود، فنحن نصورهم كما قرأت لك أمس بطريقة فنية راقية.. بينما قراءتى لأدبهم جعلتنى أقشعر وأنا أجمع الصفات الحيوانية الشيطانية التى يلصقونها بالإنسان العربى.. الأدب معركة يا أستاذ وهم فى مواقع الهجوم دائماً، ونحن بأمثالك فى مواقع الدفاع دائماً. لماذا؟».

ولن يجيب كاتبنا الكبير على سناء هاشم..

لأنه كان قد اختار أن يكون فى صف سناء حسن، غير أنه ينسى أن بنت الحاج هاشم هى صوت مصر الحقيقى.. الصوت الباقى.

أما صوت سناء بنت حسن باشا فهى الصوت المزيف، والذى سرعان ما يزول.

أين كان توفيق الحكيم والمثقفون فى قاع الجحيم؟

دقَّ جرس التليفون فى منزل توفيق الحكيم، وكان على الطرف الآخر صوت مهذب أكثر من اللازم يتكلم بلهجة شبه عسكرية:

ـ رئاسة الجمهورية يا فندم.. مبروك يا سعادة البك.. سيادة الرئيس أنعم على سيادتك بأرفع وسام فى الدولة.. قلادة الجمهورية.. معك على الخط سيادة كبير الأمناء.

وتكلم توفيق الحكيم مع صلاح الشاهد. لم يفهم فى بداية الأمر شيئًا. ولكنه ظل يردد: نعم. نعم. حاضر. شكرًا.

شخص آخر هو الذى فهم. دقَّ بيته هو الآخر جرس التليفون، ولكن من رئاسة تحرير جريدة «الجمهورية» وسمع صوتًا أجش يقول:

- يا استاذ رشدى لا تكمل مقالك الجديد عن توفيق الحكيم.

وحين أراد أحمد رشدى صالح أن يستفسر عما حدث، كان الخط قد انقطع!

* * *

حدث ذلك عام ١٩٥٧. كنت محررًا «مشاغبًا» فى مجلة ذائعة الصيت حينذاك اسمها «العالم العربى». وكانت مقالات أحمد رشدى صالح على صفحات «الجمهورية» قد استهوتنى، فكتبت مقالاً بعنوان «بين خمينيث وحمار الحكيم». وصدرت المجلة بعد أن توقفت حملة الجمهورية على توفيق الحكيم، وبعد أن أعلنت الصحف عن فوزه بأرفع وسام فى الدولة (لا يعطى إلا لرؤساء الدول). ولأنه لم يكن لدىّ تليفون فى المنزل، فقد فوجئت بأسعد حسنى - رئيس التحرير - يطرق بابى فى الصباح الباكر وهو يصرخ: خربت بيتى، خربت بيتى! كان أحمد رشدى صالح قد بدأ سلسلة مقالات نقدية، يقارن فيها بين بعض مسرحيات توفيق الحكيم وبعض الأعمال الأجنبية. وكانت أكثر المقارنات مدعاة للدهشة والإثارة، تلك المقارنة التى أقامها بين «حمار الحكيم» وحمار خمينيث الكاتب الإسبانى.. فقد طبع إلى جانب مقاله بالزنكوغراف صفحات كاملة من الأديب المصرى تقابلها صفحات مماثلة من أديب إسبانيا تصل إلى حد المطابقة!

وهاجت مصر وماجت. وارتفع توزيع الجمهورية ارتفاعًا مذهلاً،

والجمهورية هى جريدة الثورة وصوت حركة ٢٣ يوليو. وبعد أزمة مارس - آذار ١٩٥٤ وتأميم القناة فى ١٩٥٦ أصبحت اللسان الرسمى للرئيس عبد الناصر، قبل أن ينتقل هيكل من «آخر ساعة» إلى «الأهرام».

وثار «الرئيس» ثورة عاتية. ونقل عنه المقربون أنه قال:

- إننى لا أفهم المقارنات والتحليلات الأدبية. ولكنى أشعر أن هناك من يريد النيل من توفيق الحكيم. وهو رجل عظيم اعترف أننى تأثرت بروايته «عودة الروح» تأثرًا عميقًا، لقد حاولت تقليده فى كتابة قصة لم أكملها، ولكن المؤكد أننى استوحيت من روايته «ثورة» أحاول استكمالها.

وتسربت تعليقات عبد الناصر فذاع تعبيره أنه تأثر بعودة الروح لتوفيق حكيم، ثم جاء الوساء الرفيع كالخاتم الرسمى على الشهادة.

وارتاح الحكيم! لا لأن رأى عبد الناصر فيه كان إيجابيًا، وإنما لأن «الحملة» عليه قد توقفت.

وارتاح شخصان آخران ضحكا فى أكمامهما طويلاً هما التوأمان مصطفى وعلى أمين! فقد كان الحكيم - آنذاك - هو «نجم» «أخبار اليوم» اللامع. كان أكبر كتاب «الدار»، وعلى يمينه العقاد مرفوضًا لسلبيته وجموده المفرط، وعلى يساره سلامة موسى مرفوضًا لتقدميته وتطوره المكشوف. كان العقاد تخلى نهائيًا عن ثوريته القديمة وأصبح يرى العلم ضد الدين. وكان سلامه موسى قد وصل نهاية الشوط فأصبح يرى العلم وحده هو الدين. بينما راح توفيق

الحكيم على صفحات «أخبار اليوم» يكتب مسرحيته الشهيرة «رحلة إلى الغد» ليقول فحسب: ما أفظع العلم إذا سيطر على الدنيا غداً، كم هو مظلم المستقبل الذى يخضع لتوجيه العلم والعلماء!

ولم يكن هذا الحوار ـ الفلسفى! ـ بحد ذاته مهماً، إلا فى حدود ضيقة من حلقات المثقفين. ولكن الأهم أن العقاد كان قد انطوى فى صومعته بعيداً عن الفكر السياسى احتجاجًا على كافة منجزات حركة ٢٣ يوليو. وكان سلامه موسى صوتًا مدويًا بسلامة اتجاه عبد الناصر رغم السلبيات الثانوية، لأنه الاتجاه التاريخى لمصر نحو الاشتراكية والديموقراطية. أما توفيق الحكيم فكتب مسرحية «إيزيس» باعثًا المجد الفرعونى القديم!

وقد أتاح مصطفى وعلى أمين لتوفيق الحكيم الفرص كافة لتتويجه «أبًا» فكريًا لمصر الحديثة. ثم إختطفه هيكل إلى الأهرام ومات سلامه موسى. وبعده رحل العقاد. وصدرت تنظيمات الصحافة التى تشبه التأميم، فأحس الأخوان أمين بالزلزال، وعوت الكلاب من قبل أن تتفجر!

***

هل معنى ذلك أن توفيق الحكيم كان ضد ثور ٢٣ يوليو؟

كلا!

هل معنى ذلك أنه «نافقها» خوفًا وجبنًا؟

كلا أيضًا! بل لعله كان الأديب الوحيد الذى يعد بحق كاتب

النظام، من قبل أن يوجد النظام.

لم يكن الحكيم أديبًا ثوريًا، ولكنه كان ساخطًا على الديموقراطية الشكلية أيام الملك، هاجمها بضراوة أصابت برذاذها حزب الوفد - أكبر التنظيمات السياسية الليبرالية - وفى «عصا الحكيم» و «حمار الحكيم» و «شجرة الحكم» حملة شعواء على المجالس النيابية والوزارية والدستور حتى أنك تتصور الرجل أحيانًا وكأنه ضد الديموقراطية!

ولكنه أيضًا، وأثناء الحرب الثانية بالذات، شن هجومًا صاعقًا ضد هتلر والنازية وموسولينى والفاشية. وأجرى حوارًا بين شهريار الجديد وشهرزاد تنبأ فيه بهزيمة النظم العسكرية الدكتاتورية وأكد فيه مناصرته للحضارة الديموقراطية.

ليس ذلك فحسب!

بل هاجم الشيوعية واعتبرها من حيث الأسلوب الوجه الآخر للفاشية، ولم يفرق كثيرًا بين هتلر وستالين، رغم إختلاف غايتيهما. ولكنه مجَّد روزفلت وتشرشل وديغول.

أين كان يقف إذن؟ وهو الرجل الذى تشهد له أجهزة الأمن المصرية على اختلاف عصورها، أنه لم يلتحق بحزب من الأحزاب. رجل وقف بوضوح ضد الغول الفاشيستى وما دعاه بالخطر الأحمر على الصعيد الدولى. كما وقف بوضوح ضد حكومات الأقليات وحزب الأغلبية فى الوقت نفسه على الصعيد المحلى!

أين كان؟

كان يرتدى ثياب «محسن» فى «عودة الروح»، وشعاره «الكل فى واحد». وكان الداعية الحقيقى لفكرة «المستبد العادل» التى ظهرت طيلة الثلاثينيات من هذا القرن فى الحياة السياسية المصرية.

لقد رفض الاشتراكية شكلاً ومضمونًا، كما رفض الديموقراطية الغربية فى التطبيق المصرى! ولم يكن «منظمًا» فى حزب من الأحزاب.

هكذا رآه التوأمان مصطفى وعلى أمين - بحق - نبيًا للنظام الجديد. إنه ليس انتهازيًا بأى حال من الأحوال، فهذا الشكل الجديد من أشكال الحكم هو الحلم الذى كان يراوده منذ سنوات طويلة، بصورة ضبابية غائمة!

كان تأييده لحركة ٢٣ يوليو صادقًا لأنه أبوها الشرعى. وحين أراد «أمين اخوان» أن يستغلا هذه الأبوة حتى النهاية اختطفه هيكل إلى الأهرام. كانت ثورة ٢٣ يوليو تتحرك باعتدال نحو الوسط. وقد جاء وسام عبد الناصر للحكيم عام ١٩٥٧ حماية له من اليسار، كما جاءت الأهرام حماية له من اليمين.

* * *

ولكن جرس التليفون دقّ مرة أخرى فى بواكير عام ١٩٥٩ فى بيت توفيق الحكيم. دقّ - فى الواقع - أكثر من مرة.

قال له الخط الثانى: الرئاسة تسأل توفيق بك ما إذا كان يمكن

أن يشرب الشاى مع السيد الرئيس بعد الظهر. وارتج الأمر على الحكيم وطلب مهلة دقائق للرد، لأنه كان فى «الحمام» واتصل مباشرة برئيس تحرير الأهرام الذى دبَّر الأمر كله فأجابه هيكل: أبدًا.. الرئيس عاوز يشوفك. طبعًا سمعت باللى حصل. عاوز يسمع رأيك.

قبل ذلك كان نجيب محفوظ على الخط الأول، قال له: يا توفيق بك، أناشدك التدخل لثقة الرئيس بك ومودته لك وتأثره المعلن برواياتك، أناشدك التدخل لإنقاذ سمعة النظام من هوس أجهزة الأمن التى اعتقلت خلال الأيام الماضية بعضًا من صفوة المثقفين فى البلد. يا توفيق بك، يوسف السباعى أنقذ عبد الرحمن الشرقاوى فقد كان اسمه مكتوبًا فى القوائم. كامل الشناوى ذهب بنفسه إلى عبد الناصر لينقذ أحمد رشدى صالح، حتى سعد الدين وهبه أنقذ عبد القادر القط. وقد غضب الرئيس حين تبين له بالفعل أن الشرقاوى وصالح والقط لا علاقة لهم بالتنظيمات الحزبية. كلمتك لآن يا توفيق بك يمكن أن تنقذ العديدين، أرجوك.

ورغم معرفة نجيب محفوظ بالتسجيلات المباحثية للتليفونات فقد كاد يجهش بالبكاد وهو يقول:

- النظام نفسه فى خطر يا توفيق بك. أشك فى أن الرئيس يعلم كل شىء. وحتى لو كان يعلم فقطعًا لا يدرى بالتفاصيل: تفاصيل الأسماء وتفاصيل ما يحدث.

وجاءه صوت توفيق الحكيم وقورًا ثابتًا:

ـ يا نجيب دول بيقبضوا عليهم لأسباب مالهاش علاقة بالفكر والأدب.. دول لهم صفتين، صفة المثقف وصفة السياسى، إحنا ندافع بس عن المثقفين، لكن الناس اللى عايزه السلطة مالنا ومالهم؟

وصمت نجيب محفوظ على الطرف الآخر. ولم يدق تليفون الرئاسة من جديد فى بيت الحكيم، فقد استطاع هيكل أن يبرر موقفه للريس بأن الرجل عجوز ولا يدرك من الأمور التى تجرى شيئًا ومن الأفضل لسمعته أن يكون بعيدًا حتى لا يتهمه أحد أو يشك فيه.

واستغرب عبد الناصر طويلاً.. فقد كانت بين يديه قائمة أعدتها المخابرات العامة بأسماء مجموعة من أساتذة الجامعات وكبار الأدباء، يريد أن يستمع إلى رأيه فيهم!

وقد أراد الحكيم أن يغسل يديه كبيلاطس البنطى من دماء الأبرياء، فكتب عام ١٩٥٩ مسرحيته الشهيرة «السلطان الحائر». ذلك السلطان غير الشرعى، والذى لا بد وأن يكتسب شرعيته بصوت الشعب والقانون، لا بالسلطة والسيف. كان واضحًا رغم الديكور الملوكى الذى أضفاه على المسرحية أنه يقصد النظام المصرى الراهن وأنه يثق إلى أقصى الحدود بجمال عبد الناصر، ولكنه يحذره من الوزير والقاضى والمؤذن والسيف، ويضطره لقبول الغانية الفاضلة وحكم القانون.

وطلبه نجيب محفوظ بالتليفون مهنئًا، يقول:

ـ الحمد لله على أن الرقابة وافقت.. باقى «أولاد حارتنا». كانت

هذه هى الرواية الأولى لنجيب محفوظ، التى يمكن أن تكون محكًا لعلاقته بالحكم.. فالثلاثية التى بادرت بنشرها مجلة «الرسالة الجديدة» بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٦، ثم صدرت كاملة فى ثلاثة أجزاء عام ١٩٥٧ اقتصرت على تناول المرحلة الواقعة بين عامى ١٩١٧ و ١٩٤٤ أى أنها توقفت تاريخيًا قبل حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بثمانى سنوات. أما «أولاد حارتنا» فقد عالجت بالرمز الدينى المهذب قضية الاشتراكية والعلم. رفضتها الرقابة أولاً، وثار عليها الأزهر ثانيًا، وتمكن هيكل من حل وسط عجيب هو نشرها مسلسلة فى الأهرام دون نشرها فى كتاب.

وظل أصدقاء نجيب محفوظ من الكتَّاب والنقَّاد يختفون الواحد بعد الآخر. كانت ندوته الأسبوعية فى كازينو أوبرا وسط القاهرة (كازينو صفية حلمى) كل يوم جمعة. وكان من اليسير كلاحظة التناقص التدريجى فى عدد رواد الندوة منذ أول العام الجديد ١٩٥٩ إلى ٢٨ مارس - آذار من نفس العام إلى يوليو - تموز إلى العام التالى ١٩٦٠. اختفى من الندوة - حضورًا وذكرًا وتباعًا - محمود العالم ولويس عوض ولطفى الخولى وأمير إسكندر وصلاح حافظ وفيليب جلاب وشوقى عبد الحكيم وطاهر عبد الحكيم وفتحى خليل وسعد التايه وألفريد فرج ونبيل زكى ومئات.. مئات غيرهم، يعرفهم الأقلون ويجهلهم الأكثرون.

وتكهرب جو مصر! أن ثمة شيئًا رهيبًا يحدث ولكن فى صمت. تجاوز العدد المئات وبدأ العد بالألوف. صفوة العقول وخيرة

المناضلين وأصلب الوطنيين.

ولا أحد يتكلم! وإنما حملقت الدنيا كلها وطالت الألسُن على آخرها، حين راح أحد اللصوص الظرفاء يطارد الأغنياء فى عقر دورهم، يأخذ منهم ولا يقتل. والشرطة تحاول عبثًا الإمساك به. وأصبح بطلاً فى المخيلة الشعبية يتتبع الناس أخباره لحظة فلحظة وقلوبهم بين أيديهم يضرعون إلى المجهول إلا يقع فى أيدى البوليس. وإنضمت إحدى الصحف الكبرى إلى قافلة الشرطة تتعقب «المجرم الخطير» وترصد لمن يعثر عليه ـ نيابة عن وزارة الداخلية ـ مكافأة خيالية. أما الجماهير، فبعضهم كان يحميه، والغالبية كانت موزعة بين السؤال عن آخر «غنى» سرقه والسؤال عن مصيره. إلى أن تواجه الغريمان عند إحدى المغارات بحلوان:

الشرطة فى الخارج، و «اللص» فى كهفه يمسك مسدسًا ويقسم أنه لن يستسلم، وكم كانت شماتة الشعب وفرحته طاغية حين أطلق على رأسه الرصاص! أحس الجميع أنه انتصر، شعروا أن «عدوهم الحقيقى» هزم.

وشرع نجيب محفوظ يكتب «اللص والكلاب»! أما توفيق الحكيم فعلق قائلاً: هو إيه اللى بيحصل فى البلد؟ الوحدة مع سوريا هى السبب. إحنا مالنا ومال العرب يا ناس؟ هو إحنا فاضيين للغم ده واللا إحنا غاويين مصايب بس.

كانت هذه ـ فعلاً ـ نقطة الخلاف الأساسية وربما الوحيدة بين توفيق الحكيم وجمال عبد الناصر. لم يعلنها، ولكنه بالتأكيد كان

يضمرها ويجهر بها سرًا بين خلصائه. بينما كان خلاف الشعب المصرى مع عبد الناصر مغايرًا. كانت «الأجهزة» هى الغول الحقيقى الذى يهدد كافة المنجزات من الاستقلال إلى الوحدة إلى التأميم. كان الشعب موقنًا بأن هذه الأجهزة تتآمر على عبد الناصر نفسه، بضرب العزلة الجماهيرية من حوله، ببث الكراهية فى إجراءاته، بإقامة الحاجز الأسطورى بينه وبين صوت الشعب وضميره.

ولولا أن عبد الناصر كان فى بلغراد عام ١٩٦٠ لما علم.. فوجئ باليوغسلاف يتحدثون عن مناضل شيوعى مصرى كبير هو «شهدى عطية الشافعى» قد اغتيل فى سجن أبى زعبل تحت سياط التعذيب. وكان أول عمل قام به عبد الناصر فور عودته إلى مطار القاهرة أن تقدم ببلاغ - باسمه الشخصى كمواطن مصرى - إلى النائب العام يطلب التحقيق فى الجريمة المذكورة!

وتوقفت حمامات الدم فى السجون والمعتقلات المصرية، بعد أن استشهد على أيدى الجلادين المدربين والمرضى، المناضلون فريد حداد ومحمد عثمان ورشدى خليل وغيرهم كثيرون. وما زالت آثار السياط وكسر الأحجار وضرب الشوم على ظهور وأجساد الغالبية الساحقة من المناضلين المصريين.

وحتى..

حين صدرت قرارات الإفراج من رئيس الجمهورية قبيل منتصف عام ١٩٦٤ كان الصراع ضد المعتقلين والمسجونين السياسيين فى الذروة التى أودت بحياة المناضل لويس إسحق قبيل أيام من الخروج الكبير.

وكان توفيق الحكيم فى ذلك الوقت يكتب مسرحية «طليعية» فى غموضها بعنوان «يا طالع الشجرة»، بينما راح نجيب محفوظ بعد «اللص والكلاب» التى جعل فيها اللص «فدية الملايين»، راح يكتب «السمان والخريف» ليجعل من اليسار رمزًا للطريق الوحيد أمام التطور، ويكتب «الطريق» باحثًا عن الحرية والكرامة والسلام، ويكتب «الشحاذ» مستجديًا الحقيقة، ويكتب «ثرثرة فوق النيل» رافعًا مظلمة الحكيم القديم ايبوور إلى الفرعون الجديد، ويكتب «ميرامار» ناعيًا السقوط مستهولاً الفاجعة.

وإلى جانب نجيب محفوظ، كانت هناك قلة من الفرسان الذين غامروا بوضع الجرس فى رقبة القط: بعضهم همس للرئيس بالحقيقة، والبعض الآخر ساعد الأسر الجائعة والعائلات المشردة والأرحام الثكلى و..

ولم يكن المناضلون الذين عذبوا إلى حد الموت يهتفون بسقوط عبد الناصر.. قلة نادرة هى التى فعلت لزمن قصير، وعادت بسرعة إلى صوابها. وإنما كانت الغالبية ـ فى ظلمة الأقبية وأفران الدم ـ تراه بطلاً قوميًا. بل رأته إحدى الكتل الكبيرة مع بعض رفاقه «مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة».

لماذا كان الذين فى قاع الجحيم يهتفون بحياة عبد الناصر، ولا يزالون إلى اليوم هم الذين يدافعون عنه؟ وأين.. أين كان توفيق الحكيم؟

ببساطة لم تكن القضية عند هؤلاء جراحًا شخصية. كانوا يرون

الاستقلال والسويس والسد العالى والإصلاح الزراعى والتحضير والتأميم والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم تستحق التضحية حتى الموت. وكانوا يرون الجحيم بعيون مفتوحة على الصراع الاجتماعى الضارى فى باطن المجتمع وعلى قمة السلطة على السواء. ولم يكن السجن والتعذيب والإفراج والقتل إلا جانبًا من هذا الصراع.

ولست أنسى مطلقًا، جمال عبد الناصر فى أواخر عام ١٩٦٩ حين إجتمع بأسرة «الطليعة» فى مؤسسة الأهرام، وقال لنا بالحرف: لولاى.. لكنتم حتى الآن فى الجبل. يقصد صحراء الواحات ومعتقل أبى زعبل بطبيعة الحال.

ليس معنى ذلك أنه بعيد عن المسئولية فقد كان الانفصال وهزيمة ١٩٦٧ من الدروس التاريخية العنيفة التى تلقاها فى حياته. وكانت مجزرة أيلول - سبتمبر ١٩٧٠ بمثابة الدرس الأخير الذى إنتهى بوفاته.

لقد دفع عبد الناصر الثمن فادحًا، لأنه رغم تجسيده العميق لأكثر الأجنحة تقدمًا فى سلطة ٢٣ يوليو، فإنه لم يكتشف الصيغة الصحيحة للتحول الديموقراطى عن سلطة الإقطاع والفئات العليا من البرجوازية المصرية. ومن ثم لم يكتشف الصيغة الصحيحة للتقدم الاجتماعى.

ولكنه - كما قلت - دفع الثمن غاليًا. ترك وراءه أعظم المنجزات (عروبة مصر وتطورها نحو الاشتراكية) فى مهب الرياح.. وقد دفع الكثيرون - الكثيرون، الثمن مضاعفًا حين جرءوا بنبالة الشهداء على مواجهته.

- ولم يكن توفيق الحكيم من بينهم..

أما أنه كان يصمت أو أنه كان يقول كلامًا يرادف الصمت.. وحين تكلم فى المرات القليلة التى خلع فيها البيريه وألقى العصا، ماذا قال؟

قال مع التأميم «الطعام لكل فم» وكتب «شمس النهار» ممجدًا قيمة العمل متفائلاً بمستقبل العلم. ثم كتب عام ١٩٦٦ «بنك القلق» مشيرًا إلى أجهزة القهر والطغيان. وعند انتخابات الرئيس الثانية كتب فى الأهرام: لقد انتخبته منذ ثلاثين عامًا لافتًا النظر من جديد إلى بطل «عودة الروح». وحين رحل كتب أولى القصائد مطالبًا له بتمثال فى أكبر ميادين العاصمة، يتم نحته وفق مسابقة عالمية بين الفنانين الكبار، ويسهم فى إقامته كل مواطن.

وكان الحكيم - فى يقينى - صادقًا كل الصدق حين اتخذ هذه المواقف، وقال هذه الكلمات. إنه «كاتب النظام» الأول، سواء أكان بدعوته الباكرة إلى نظرية المستبد العادل، أم بموافقته - العلنية والمستترة والضمنية - لخطوات ٢٣ يوليو..

الوحدة العربية فقط كانت «الشوكة» فى حلق الحكيم، وعندما انكسرت بالانفصال عادت مباركته لما يجرى أشد..

لم يفتح فمه بكلمة عن «الثقافة والحضارة» حين اعتقلتها الأجهزة فى سراديب الموت. وحين طلب منه السلطان المشورة إعتذر بالشيخوخة وقلة الحيلة. وحين أطلعه البعض على قمصان الدم أشاح بوجهه عن اللون الأحمر قائلاً إنه يفرق بين الثقافة والسياسة.

من هنا، بالضبط ـ تسقط أهليته لرفع الدعوى التى أقامها فى مقاله السياسى الرخيص والمبتذل «عودة الوعى».

إنه ليس شاهدًا، ولا صاحب حق. وإنما هو بالدقة «المسئول الأدبى» عن النظام الذى يدينه ولا تعنينا فى القليل أو الكثير أكذوبته اللفظية التى يقول فيها: «أرجو من التاريخ أن لا يبرئ شخصًا مثلى، يحسب فى المفكرين، وقد أعمته العاطفة عن الرؤية ففقد الوعى بما يحدث حوله».

هذا النقد الذاتى الزائف ليس أكثر من شرك ينصبه لكل منا..

وقد سقط البعض منا للأسف فى المصيدة. جميع الذين ناقشوه الحساب أخطئوا الحساب.. فهذا هو هدفه أو هدف الذين وراءه.. لقد أفردت الأخبار وأخبار اليوم وآخر ساعة والمصور صفحاتها للرد ورد الرد، ورد رد الرد، وهكذا لمجرد ترسيخ الانطباع الذى توحى به السطور والكلمات والإحرف وحتى المساحات البيضاء.

لا تناقشوا مقال «عودة الوعى» فهو بالمقاييس كافة لا يستحق النقاش.. وإنما تأملوا معى هذه الحدوتة أو الحكاية «كان يا ما كان رجل حكيم يحذر المشى وسط الشارع، يتكئ على ظله جانب الحائط، يتنكر بالعصا والبيريه حتى يظنه العقلاء مجنونًا والمجانين عاقلاً، عاش عمره فى التبات والنبات وخلف صبيان وبنات. وحين بلغ ثلاثة أرباع قرن من الزمن المثلج وسط غابة مشتعلة خلع ثيابه كلها دفعة واحدة ووقف وسط الطريق عاريًا يصرخ فى المارة بأعلى صوته: جلا جلا.. أنا حكيم الزمان وكل أوان. فلم يصدقه البعض

وتمتموا بلا مبالاة: نوع جديد من الحواة. وصدقه آخرون وقالوا..»
ولم تكتمل الحدوتة أو الحكاية، ولكنى سمعت أحدهم يغمغم بأسى
وحزن عميقين: لقد سقط كاتب عظيم.

دار صحفية أم سفارة أمريكية!؟

أثناء المناقشات الواسعة التى جرت فى مصر خلال الأسابيع القليلة الماضية حول «تطوير الاتحاد الاشتراكى» فى مصر كتب على أمين فى «أخبار اليوم» مقالاً دعا فيه الشيوعيين المصريين إلى تكوين حزب علنى معترف به من الدولة. وبرر الكاتب دعوته بقوله إن ضجيج الشيوعيين وهم تحت الأرض أكبر من حجمهم الحقيقى، إذا رأت وجوههم الشمس. وأنه لا بد من أن يعرفهم الناس حتى لا يظل غموضهم مدعاة للجاذبية، فحين يعرفهم الناس على حقيقتهم سوف ينفضون من حولهم، ويسقط سحر العمل السرى. واقترنت دعوة على أمين بدعوة أخرى ترددت فى مجلس الشعب المصرى أثناء المناقشات، تطالب الدولة بنشر أسماء الشيوعيين على الملأ.

ولعله لم يعد سراً أن مصطفى أمين قد اعترف، فى التحقيقات التى انتهت بمحاكمته وإدانته عام ١٩٦٥، أن «دار أخبار اليوم» تملك جهازاً للمعلومات يعتمد على مصادر موثوقة محلية وأجنبية، وأن هذا الجهاز يتبادل المعلومات مع الأجهزة الأخرى المحلية

والأجنبية. وكان واضحًا من التحقيق أن التنظيمات الشيوعية المصرية هدف رئيسى لهذا الجهاز، فلديه أسماء الشيوعيين وظائفهم وأحوالهم الاجتماعية وتحركاتهم.

ومن المؤكد أن الحقائب الأربع التى سربها مصطفى أمين - باعترافه - إلى شقيقه التوأم فى لندن عن طريق السفارة الأمريكية فى القاهرة، لم تكن تحتوى على رسائل غرامية.. فالأرجح أنه منذ تسلم السيد خالد محى الدين مسئولية «أخبار اليوم» بدأ الإخوان فى تنظيفها من الأسرار وتطهيرها من الوثائق. ولا شك أنه كانت بين «الأوراق الخاصة» ذلك الأرشيف السرى الخطير الملىء بالمعلومات عن الشيوعيين المصريين وغيرهم من المناضلين الوطنيين والديمقراطيين.

ومن ثم فدعوة على أمين إلى تكوين حزب شيوعى علنى، أو خروج هذا «الحزب» إلى السطح، وكذلك الدعوة إلى نشر أسماء الشيوعيين وغيرهم لا تتصل بفضول على أمين أو حب استطلاع بعض أعضاء مجلس الشعب، لأن أرشيف على أمين وملفات أجهزة الدولة لا تنقصها المعلومات. وإنما الأمر كله هو تصوير المناضلين سواء أكانوا شيوعيين أم ناصريين أم غيرهم وكأنهم «خوارج» العصر والنظام. تمامًا كالمعادلة السقيمة التى نشرها مؤخرًا صالح جودت فى «المصور» حين قال إن الماركسيين ملحدون وأن المصريين مؤمنون، وإذن فالماركسيون ليسوا مصريين!! هكذا، فتحت مظلة رفع الرقابة يهدد دم الوطنيين فى مصر إذا آمنوا بعروبة مصر والاشتراكية

والمنجزات الإيجابية لعبد الناصر، فهذا كله «كفر» عند صالح جودت. أما عند على أمين - الأكثر ذكاءً - فالأمر يستحق تنظيمًا علنيًا للشيوعيين! هل يمكن حقًا لعلى أمين أن يكون «ديموقراطيًا» إلى هذا الحد، أم أنها خدمة تخفى مصيدة جديدة للمناضلين؟ لنقم إذن بجولة فى البناء الشاهق بشارع الصحافة بالقاهرة، تلك القلعة التى يسمونها تواضعًا بدار أخبار اليوم.

* * *

عشت شهورًا قليلة فى «أخبار اليوم» بين أواخر عام ١٩٥٦ وبدايات عام ١٩٥٧. أخذنى سلامه موسى ذات صباح إلى مكتب موسى صبرى رئيس تحرير مجلة «الجيل» التى تصدرها الدار أسبوعيًا حينذاك. كانت المجلة طموحًا لأن تكون «تايم» العربية، حتى فى طريقة الإخراج. وكان سلامه موسى كاتبًا لامعًا بين مختلف الكتّاب الكبار الذين اختارهم مصطفى وعلى أمين بدهاء وبراعة، ممثلين لمختلف التيارات الفكرية قبيل ثورة يوليو ٥٢. كان سلامه موسى والعقاد وزمى عبد القادر وإبراهيم المصرى وغيرهم يضفون على صحف الدار طابعًا «ليبراليًا». ولكن الحقيقة هى أن الواحد منهم كان يكتب مقاله أكثر من مرة حتى يوافق عليه الرقيب مصطفى أو على أمين. وكانت «أخبار اليوم» أول صحيفة مصرية ترفع أجور الكتّاب والصحفيين، ولكنها مقابل ذلك كانت تستنزف أقلامهم استنزافًا فهم يكتبون اليوميات فى الأخبار والمقالات والمترجمات ورسائل القراء فى «أخبار اليوم» و «آخر ساعة» و «الجيل».

وكان لسلامه موسى صفحة اسبوعية فى «الجيل» يخصصها عادة للشباب. لذلك اقترح علىَّ أن أحرر الصفحة الثقافية. وافقت ووافق موسى صبرى. وفى الأسبوع نفسه التحق بالعمل معنا الزميل أحمد بهجت، وقد بزغ نجمه حين استطاع مع زميلتنا أمينة شفيق أن يجريا تحقيقًا على الطبيعة أثناء العدوان عام ١٩٥٦ فى بور سعيد.

كنت فى ذلك الوقت واحدًا من مجموعة الشباب الجدد فى حقل الثقافة المصرية، نجتمع فى بيوتنا أو فى المقاهى الشعبية أو نسيح فى الشوارع، وننشر إنتاجنا فى المجلات اللبنانية، حماسنا يطوى أيامنا واندفاعنا يطوى ليالينا وطموحنا يروى أحلامنا بشهوة تغيير العالم.

والقلة القليلة التى استطاعت منا أن تنفذ إلى جريدة «المساء» برئاسة خالد محى الدين أو مجلة «صباح الخير» برئاسة أحمد بهاء الدين، أفلتت أحلامها من سجن الواقع المر للصحافة المصرية، أما أنا (وغيرى)، فقد كان رئيس التحرير أو سكرتيره (المرحوم توفيق بحرى) ينشر مقالاً ويشطب أربعة، ويسألنى كل مرة، مَنْ هو يوسف أدريس أو عبد الرحمن الشرقاوى، أو ألفريد فرج، أو صلاح عبد الصبور؟ هل قرأت «لا أنام» لإحسان، أو «أنى راحلة» ليوسف السباعى، أو «شباب امرأة» لأمين يوسف غراب؟ هؤلاء هم أعمدة الثقافة المصرية. لا تكتب عن المغمورين حتى لا تصبح مثلهم، إنهم لا يكتبون كلامًا مفهومًا.

واصطدمت بموسى صبرى مرارًا، ولكنه تحملنى إكرامًا لسلامة موسى. إلى أن وقعت الواقعة بانتخابات الاتحاد القومى وقد رشح نفسه عن دائرة قصر النيل، وهى الدائرة ذاتها التى رشح فيها مجدى حسنين. وعقد موسى اجتماعًا للمحررين بسط فيه مجموعة من الخرائط لإحياء الدائرة الانتخابية. وطلب منا شباباً شابات ـ أن نساعده فى المعركة . وسجل صوت عبد الحليم حافظ على شريط يغنى أمجاده، ورفع اللافتات التى تقول: «انتخبوا موسى صبرى الذى لم يؤسس مديرية التحرير»، أو تقول: «انتخبوا موسى صبرى.. كاتب حر لم يركع لحاكم». وأعلن لنا فى سرور بالغ أن أجمل الممثلات وأشهر النجوم، سوف يقيمون المآدب احتفالاً به ودعوة إلى انتخابه. وفوجئ بى أرفع أصبعى وسط الاجتماع أطلب الكلام. قلت:

ـ إننا كمحررين فى هذه المجلة يجب أن نظل بمنأى عن المعركة الانتخابية ما دمت أنت بالذات مرشحًا.

أسكتنى الزملاء وتجهم وجهه قليلاً، ثم تمالك نفسه وسألنى مازحًا:

ـ هل أنت شيوعى؟

قلت: لماذا؟

أجاب: لأن الشيوعيين فقط ضدى ويؤيدون مجدى حسنين. قلت له: أنا لست من أبناء هذه الدائرة فلن أنتخب أحدكما، ولكنى أعتذر بصراحة عن المشاركة فى هذه المعركة، لا أستطيع مساعدتك.

وخرجت من الاجتماع. ولم أعد إلى «أخبار اليوم» من ذلك الوقت!

ولكن معركة أخرى كانت تنتظرنى مع «ملوك القلعة» بعد هذا التاريخ بقرابة عام. كنت قد ذهبت - مرة أخرى - برفقة سلامة موسى إلى «دار روز اليوسف» لمقابلة أحمد بهاء الدين للعمل فى «صباح الخير». انتقل معى - بالصدفة وحدها - أحمد بهجت. وكان سلامة موسى مشغولاً بتأليف كتاب حول «الصحافة حرفة ورسالة» وكنت مشغولاً بكتابة دراسة نقدية لسلامة موسى وفكره. وقد أطلعنى على مخطوط الكتاب فصلاً فصلاً، قبل أن يسلمه إلى «أخبار اليوم» لإصداره ضمن كتابها الشهرى. ومات سلامة موسى فجأة فى ٤ أغسطس - آب ١٩٥٨. ولم يكد يمضى أسبوع حتى ظهرت إعلانات مكثفة عن الكتاب. وقد بيعت منه عشرات الألوف من النسخ فى أسبوعين فقط، كان السعر رخيصًا للغاية، والمؤلف نجم لامع مات حديثًا. وتصفحت الكتاب وكاد يغمى علىّ! لم يكن الكتاب عن الصحافة لا كحرفة ولا كرسالة وإنما كتاب عن مصطفى وعلى أمين و «أخبار اليوم»! واتصلت فورًا بالدكتور رؤوف الابن الأكبر لسلامة موسى، وكان يعمل حينذاك باحثًا بالمركز القومى للبحوث قبل تعيينه أستاذًا بجامعة الإسكندرية. وكتبت مقالاً يشتمل على كافة الحقائق بجريدة «المساء». لم يكن المخطوط لدى أحد منا. ولكن أسرة الفقيد رفعت دعوى أمام القضاء تطالب الناشر بتقديم المستندات. وحاول على أمين أن يعطى الأسرة كل ما تطلبه من مال مقابل التنازل عن القضية. ولكن المشكلة هى أن الكتاب المزيف كان عدوانًا على تاريخ سلامة موسى بأكمله. ولم يرضخ أحد

للإغراء ولا للتهديد (ظل التوأمان يشيعان فى كل مكان أن رؤوف سلامة وغالى شكرى من الشيوعيين الخطرين، وأن قضية الكتاب مدفوعة من الحزب الشيوعى المصرى!!).. وكسبت الأسرة قضيتها وصادرت النيابة بعض النسخ المطبوعة التى وجدت، وكذلك المخطوط الأصلى! هنا كانت المفاجأة الحقيقية. وطبع الكتاب من جديد طبعته «الأولى» الصحيحة.

هذا ما فعلوه مع سلامة موسى فى حياته وموته. مع العقاد فعلوا العكس للوصول إلى النتيجة ذاتها. كان الرجل معاديًا لثورة يوليو دون لف أو دوران، عن قناعات فكرية خالصة، فهو بتكوينه الخاص وقف ضد الإجراءات كافة التى اتخذتها قيادة الثورة، والأشكال السياسية كافة التى خلقتها. ولكن أصحاب «أخبار اليوم» هم الذين فتحوا له أبواب مؤسسة فرانكلين ومكتب الاستعلامات الأمريكى وسلسلة «الناقوس» التى كانت تصدرها مكتبة الأنجلو المصرية للهجوم على الشيوعية والشيوعيين والاشتراكية والاشتراكيين، ولتزيين الوجه القبيح لأمريكا وترجمة المؤلفات المعادية للاتحاد السوفيتى والصين. كان العقاد طاقة ضخمة، وكان مؤمنًا بما يقول، ليس مأجورًا فى معتقداته. ولكن هذه «المعتقدات» وجدت هوى لدى التوأمين فأسسا «المختار» لزكى عبد القادر، وأصبحا همزة الوصل بين العقاد والأجهزة الأمريكية. لقد التقت موضوعيًا الأهداف الوسائل وإن اختلفت الأصول والقناعات، فالمصادر واحدة لضرب الاشتراكية ودعاتها، العروبة وأنصارها، ثورة يوليو وإنجازاتها.

و «جمع النقائض» على طبق واحد لتظهر الدار كما لو كانت قلعة الليبرالية فى مصر، هو منهج «أخبار اليوم» فى توزيع الأدوار والمواد. إنها كما تنشر «الثقافة الثقيلة الدم» التى يكتبها العقاد وسلامة موسى، فإنها تنشر الصحافة الخفيفة الظل، والتى لخصها آل أمين فى المثل الشائع «ليس خبراً أن يعض الكلب رجلاً، وإنما الخبر أن يعض الرجل كلبًا» هكذا اخترعوا «ليلة القدر» كل سنة، حيث تصلهم عشرات الألوف من رسائل القراء الذين يطلبون من السماء شيئًا فى ليلة القدر، فيستجيب ملائكة الرحمة - مصطفى وعلى أمين طبعًا - وينتشلون واحداً من المعذبين فى الأرض ويرسلون إليه بالهدية التى طلبها. أو هم يعمدون إلى اختيار مريض على عتبة القبر يحيطون بكافة مظاهر الرعاية والحب والسعادة وكأنهم يرجونه أن يطلب ما يشتهى قبل الموت. هكذا فعلوا بمريضة شهيرة اسمها ليلى أصيبت بالسرطان. اعطوا عريسها - وكان قد عرف بنهايتها - مبلغًا كبيرًا ليزف إليها، وأقاموا لها «فرحًا» خرافيًا كليالى ألف ليلة وليلة، غنت فيه أشهر المطربات ورقصت أشهر الراقصات، وهبطت على العروس أغلى الهدايا. وبعد أيام ماتت ليلى كما مات غيرها ويموت المئات من مرضى السرطان.

وكانت ضربتهم ذات يوم حين علموا بأن الأديب «صبحى الجيار» أقعده المرض عن الحركة منذ الصبا ولا أمل فى شفائه. احتفلوا به احتفالاً أسطوريًا مماثلاً لفرح ليلى، وعينوه محرراً - من فراش المرض - بـ «آخر ساعة». وسافر إلى لندن بغية العلاج ولكن دون جدوى!

إنهم ـ على صعيد الفكر ـ يشيعون فكرة «الحظ والقدر والمصادفة» وهم سادة الدعوة إلى الحداثة والعصرية والحضارة الغربية! وهم ـ على صعيد المجتمع، يختارون ـ «الفرد» الذى تنفتح له طاقة السماء ليلة القدر، والذى يؤخذ من فراش المرض ليعرف السعادة قبل أن يموت أو ليشم رائحة الأمل قبل أن يستقر فى قاع اليأس. الفرد أولاً وأخيرًا، فالملايين لا تنفتح لهم سماء آل أمين ليلة القدر، وهناك ألوف «ليلى» و «صبحى الجيار» لن تزفهم صباح ولا شادية ولا نجوى فؤاد. الحظ والفرد ثم «نموذج الصحافة الناجحة» ففى غمرة انحطاط الوعى العام يجذب الفضول عيون الناس إلى هؤلاء الفرسان المنقذين ما دام الخلاص بـ «أخبار اليوم».

* * *

وفى القضايا العامة هم «جاهزون» دائمًا فما أن تسرب إليهم شعاع الضوء الأخضر عام ١٩٥٩ بالهجوم على الشيوعية حتى تحولت دار أخبار اليوم إلى سفارة أمريكية أكثر ملكية من الملك.وكانت «الكراسة الرمادية» التى زيفوها ـ كدأبهم على مر التاريخ الصحفى المعاصر ـ هى رسالتهم إلى المصريين التى يهدرون فيها دماء الشيوعيين «الملاحدة». وأصدروا النشرات والمنشورات كأى مكتب استعلام نشيط، عن «جهنم الحمراء» فى الصين وكوريا الشمالية والاتحاد السوفيتى وألبانيا!! الصور الملونة الزاهية على ورق الكوشيه بملاليم وأحيانًا مجانًا، وقد رسمت بالأحمر القانى

«مذابح الذئاب الملاحدة». هكذا ـ جنبًا إلى جنب ـ مع مقالات أنيس منصور ـ فى ذلك الوقت ـ عن الوجودية وأهميتها العظمى فى التخلى عن «حائط نسميه الله» لنواجه الحياة بشجاعة وحدنا بلا سند. أما الحياة ـ كما صوّرها أنيس منصور ـ فهى تلك التى يعيشونها فى الحى اللاتينى عرايا أو أشباه عرايا والجنس مجانًا لمن يريد ويستطيع، فى الطرقات والحدائق الرجال والنساء يضاجعون بعضهم بعضًا بلا ضابط من «القيم القديمة».

هكذا حاربوا الإلحاد «الشيوعى» ودعوا إلى الإلحاد «الوجودى» فى الوقت نفسه. وكانوا مزيفين للشيوعية والوجودية كلتيهما، فالكراسة الرمادية من صنعهم وجهنم الحمراء رسموها بريشة المخابرات الأمريكية، والوجودية ـ كما يعرف مدرس الفلسفة السابق أنيس منصور ـ لم تكن غانية تعرض جسدها للبيع!

وإنما استغلال إنخفاض مستوى الوعى فى مصر هو الذى أتاح لهم الانتشار الجماهيرى الساحق، فقد أدركوا مبكرًا قيمة الإعلام كوسيلة مواصلات عصرية: بالصورة، والجملة القصيرة، وصناعة النجم، والصلات المشبوهة التى تمدهم بالمعلومات والأخبار وشركات الإعلان.. تمكنوا من الوصول إلى كل بيت.

ويعد أنيس منصور من أهم النماذج التى جسدت براعتهم فى صناعة النجوم. مدرس الفلسفة الشاب يجىء؛ ليترجم قصصًا من الأدب العالمى ويلخص كبرى المدارس الفكرية فيكتشفون «موهبته» ككاتب وطاقته على العمل. ثم يجرون له غسيل المخ اللازم، بالمرتب

الكبير والمكتب الفاخر والشهرة اليومية. ويلتقى الاستعداد الخاص مع قانون العرض والطلب، وشيئًا فشيئًا ينسى الشاب المثقف الفلسفة والعلم وتصبح الصحافة هى «الدون جوانية» والسياحة وترجمة أغلفة الكتب إلى لغة باهرة ومثيرة توهم القراء بأنهم أصبحوا مثقفين.

ولم تذهب صناعة «أنيس منصور»، عبثًا، فقد حمل على كتفيه الميراث الأيديولوجى لآل أمين فى غيابهم المؤقت. حمل الجوهر وتخلى عن المظاهر الخارجية أو هو وضع هذا الجوهر فى إطار ذاته «المبدعة» وخصائصها المستقلة. كانت «ليلة القدر» و «ليلى» و «صبحى الجيار» هى المظاهر الخارجية لايديولوجية «أخبار اليوم» القائمة على تقديس الحظ والمصادفة وتأليه الفرد، جوهرها الحقيقى محاربة الحد الأدنى من الاشتراكية والتحرر الوطنى والدعوة المباشرة إلى التبعية للغرب.

وكان من الطبيعى أن يتقلص دور التوأمين بعد قرارات «تنظيم الصحافة» التى تشبه التأميم. خاصة وقد توالى على الدار رؤساء مجالس إدارة من أمثال: كمال رفعت، وخالد محى الدين، ولكن تقلص الدور الشخصى للتوأمين لم يتسبب فى غيابهما أيديولوجيًا. وكان موسى صبرى، وأنيس منصور ـ على وجه التحديد ـ هما أكثر التعبيرات أصالة عن فكر «أخبار اليوم».

وفى غمرة معاناة الوطن من معاركه السياسية والفكرية ضد الاستعمار والرجعية المحلية، عاد أنيس منصور من رحلته إلى الهند

ليكتب (عام ١٩٥٨) عن كيفية تحضير الأرواح فى السلة. وانتشر الوباء فى مصر طولاً وعرضًا. كانت قراءة الكف والفنجان من العادات الشائعة ولو من قبيل التسلية. وكان تحضير الأرواح، كالتنويم المغناطيسى، يهمس به الناس ولا يكادون يصدقون. أما أن تحضر الروح فى السلة فقد أصبحت «لعبة شعبية» يمارسها الصغار والكبار فى البيت والشارع والمدرسة. وكانت صناعة النجم قد كفلت لأنيس منصور أن يخترق مختلف وسائل الإعلام، حتى حين كان الأمر يدعوه إلى الوقوف أمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان باشا يشرب القهوة صباحًا ويوقع على أتوجرافات المراهقين والمراهقات. هكذا كانت الجاذبية الدون جوانية - وافتعال الفضائح أحيانًا - وسحر النجوم، عاملاً خطيرًا فى تصديق شائعة «تحضير الأرواح بالسلة» فضلاً عن الميراث الغيبى المصرى والشقاء الإجتماعى الذى يهيئ الناس لالتماس العزاء بعيداً عن الواقع الكثيف على سطح الأرض.

وانتهت البدعة وأقبلت هزيمة ١٩٦٧ فاستولت المشاعر العنصرية فجأة على «الأخ» أنيس منصور وراح يهاجم التوراة واليهود من منطلق دينى بحت. لم يكن قبلها قد ناقش الصراع العربى الإسرائيلى بحرف. حتى حين تعرض الوطن لعدوان ١٩٥٦ كان مشغولاً بعرايا الحى اللاتينى. لكنه فجأة أصبح شيخًا وفقيهًا (برفقة صاحب الفضيلة مصطفى محمود الذى بدأ حياته بداية مشابهة وأنهاها بخاتمة مشابهة. حين أصدر أنيس منصور كتابه الرصين نوعًا حول الوجودية أصدر مصطفى محمود كتابه الرصين

نوعًا حول الله والإنسان.. بعدئذ انخرطا فى صفوف المجاذيب والدراويش، ولكنهما يمسكان بمسبحة العلم حبة حبة). ومن يقرأ اجتهادات الشيخ انيس عن اليهود واجتهادات الشيخ مصطفى فى كتابه «التوراة» يشعر كما لو أن هناك مؤامرة - فيما لو ترجمت هذه الكتابات إلى لغة أجنبية، وإسرائيل قادرة على ذلك - تهدف إلى تصويرنا هتلريين نازيين وفاشست. وقد أصاب كلاهما - بحسن نية أو سوئها لا يهم ما دامت النتيجة واحدة - عصفورين بحجر واحد. أولهما: تقديم عزاء «دينى» لفاجعة ٦٧ يحمل تبريرًا لها وحلاً لمشكلتها. والآخر إمداد العدو وأنصاره - بوعى أو دونه لا يهم، فالنتيجة أيضًا واحدة - بسلاح دعائى ضدنا.

وحين وصل الإنسان إلى القمر، تمكن أنيس منصور من استغلال هذا الحدث العلمى العظيم لخدمة أهداف معادية للعلم تمامًا.. إذ راح تحت عنوان «الذين هبطوا من السماء» يزعم أن أهرامات الجيزة قد بنتها بعض الكائنات التى زارت بلادنا فى القديم من كواكب أخرى.

ثم كانت أحداث البدع المنصورية حين تحدث فى الإذاعة عن «واقعة بحار المرء فى تعليلها!» موجزها أن أحدهم كان يقود سيارته فى طريق صلاح سالم بالقرب من المقابر، وإذا به يشاهد امرأة ترتعد من البرد وقد بللها المطر فيوقف السيارة وتركب من خلفه لا إلى جانبه ويناولها معطفه وفجأة ينظر إلى الخلف بعد فترة من الزمن فلا يجد المرأة ولا المعطف. يوقف السيارة ويبحث عن المرأة

بين المقابر فيرى معطفه معلقًا على أحداها. وقد كتب على المقبرة اسم سيدة متوفاة فى ربيع العمر.. تمامًا كما هى مواصفات المرأة التى كانت فى سيارته منذ لحظات!! ويطلب الكاتب الهمام - طبعًا - من علماء الدين والنفس والفلاسفة استقراء هذه الظاهرة وتعليلها. وبدأ الناس يخشون طريق صلاح سالم ويتحدثون فى البيوت والمقاهى ومكاتب العمل عن الشابة الجميلة الميتة التى تظهر ليلاً. وبعد اسبوعين كاملين ظهر إنسان شجاع توجه إلى الإذاعة، وطلب من صاحب البرنامج أن يقرأ ما بين يديه. وإذا بها قصة لكاتب لبنانى، محض قصة فنية نقلها أنيس منصور إلى الناس كواقعة حدثت بالأمس فى مصر. وكان صاحب البرنامج هو الآخر شجاعًا فأذاع القصة، وكانت فضيحة مدوية!!

***

ولكن أنيس منصور لن يتوقف، فهذا الفكر التخديرى، والذى لا علاقة له بالدين مطلقًا، إنما هو امتداد لمنهج «ليلة القدر». لقد تواتر على «دار أخبار اليوم» رجال وطنيون كخالد محى الدين، وكمال رفعت، ومحمود أمين العالم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا فى «القلعة». بل لعل بعضهم أخطأ حين كان يتصور أنه من الممكن اجتذاب العناصر الموالية لفكر «أخبار اليوم» إلى دائرة الفكر الوطنى بمزيد من المكافآت والامتيازات، أو بعكسها أى بالتحرشات والتشنجات! لقد أدين مصطفى أمين قضية التجسس للمخابرات الأمريكية، وظل على أمين هاربًا تسع سنوات، ولكن «أخبار اليوم»

فى غيابهما لم تتغير. ظلت كما هى. حتى أنهما حين عادا إليها كأن شيئًا لم يحدث والزمن لم يمض.

ولكن أشياء كثيرة ـ فى الواقع ـ حدثت والزمن فى الحقيقة اختلف. لذلك كتب موسى صبرى كتابه الشهير «شيوعيون فى كل مكان» مادحًا الدول الاشتراكية. وهو الكتاب ـ الوثيقة التى يقدمها لليسار فى انتخابات نقابة الصحفيين كأوراق اعتماد. ولكن اليسار يعرف اللعبة فيرفضه. ثم يذهب إلى الصحفيين المسيحيين فى السر ويقول لهم: هل أصبح محرمًا على المسيحى أن يكون نقيبًا للصحفيين؟ ولكنهم أيضًا يعرفون اللعبة فلا يجيبون على السؤال، وإنما ينتخبون المرشح الآخر!!

تغير الزمن حتى أن على أمين لم يستطع البقاء فى «الأهرام» شهورًا قليلة، وحين أراد أن يهاجم الشيوعيين والوطنيين والديموقراطيين، لم يتهمهم بالإلحاد ولا بالانحلال ولا بالدموية ولا بالدكتاتورية.. وإنما راح يهاجم عبد الناصر والتأميم والإصلاح الزراعى والسد العالى والسوفيات فقط لا غير! وراح يبعث من القبور باشوات العهد الملكى!

وكانت آخر نكتة أنه يطالب للشيوعيين بحزب علنى حتى يعرفهم الناس!

اطمئن يا على بك، فالناس تعرفهم وتعرفك. وتذكر حين رأيتك آخر مرة فى بيروت منذ عام ونصف بادرتنى قائلاً: لم تتغير. وأجبتك: وأنت أيضًا!!

ترى.. هل فهمت؟! إياك فحسب أن تتوهم، وأنت فى مكتبك القديم بالدور التاسع، أن الزمن لا يتحرك.. إنه فى حركته السريعة أحيانًا يبدو ساكنًا. ولكنك حين تفيق من الحلم - ويكون الوقت قد فات - سوف تدرك أن كل شىء يتغير، كل شىء.. إلا التغير ذاته.

جمال عبد الناصر
بقلم وصوت صالح جودت

برغبة «سامية» من أمير الكويت، بدأت قصة أغرب من الخيال.. كان الأمير هو آخر من تسنى له عناق جمال عبد الناصر من الرؤساء والملوك العرب.. وقد ترك فيه نبأ الرحيل المفاجئ للرئيس المصرى أثرًا نفسيًا عميقًا، فما كاد يهبط بطائرته الخاصة مطار الكويت بعد ظهر ٢٨ سبتمبر - أيلول ١٩٧٠ حتى همس فى أذنه أحد الرجال أن عبد الناصر يعانى الآن لحظات الاحتضار.. وبعد ساعات قليلة وصله الخبر رسميًا أن الرئيس مات!

ربما كان الأمير هو أول الزعماء العرب الذين عرفوا بحقيقة الأمر.. وكانت قبلة عبد الناصر على خده ما زالت تنضح بالعرق!

مضت أيام العزاء بطيئة ثقيلة، والذكرى جاثمة على صدر الأمير، ويقال إن أرقًا حادًا أصابه فى تلك الفترة، فاستعصى عليه النوم ليال طويلة. وأفضى إلى بعض أصدقائه فى القاهرة بالمشاعر المريرة التى لا تفارقه، وقال إنه على استعداد كامل للمساهمة فى أى تخليد للرئيس الراحل.

ثم اشتبكت أسلاك التليفون بين القاهرة والكويت اشتباكًا عنيفًا ومتلاحقًا..

كان الخط الأول لأحد الأجهزة المصرية، يكلم على الخط الآخر الفنانة المصرية الكبيرة مديحة يسرى، وكان يقول:

- هل لدى شركة الموارد الثقافية والترفيهية استعداد للقيام بعمل جاد خلال أسبوع؟

وأجابت مديحة بصوتها الوقور الناعم:

● أى خدمة يا فندم.. تحت أمرك.

سألها باحترام:

- هل تعرفين الشاعر صالح جودت؟

قالت بهدوء:

● طبعًا يا فندم.

فى لهجة آمرة مهذبة إختتم الحديث:

- اتصلى به!

كانت مديحة يسرى وقد اعتزلت السينما وجربت بعض أشكال التجارة المشروعة فى القاهرة، قررت أن تجرب حظها فى شركة فنية بالكويت، تقوم - أساسًا - بالتسجيلات الإذاعية وغير الإذاعية.. برفقة مجموعة من رجال المال والاعمال فى كل من الكويت والقاهرة. ولم يكن «الصوت» الذى كلمها جديدًا عليها، ولا

كان صالح جودت صديقًا جديداً. وطلبت صالح جودت على الفور:

- أيوه يا صالح.. ازى أخبارك.. قالوا لى أتصل بيك.. خير إن شاء الله.

● خير يا دوحه.. الأمر وما فيه إنى ألفت كتابًا عن الرئيس الراحل. وبيقولوا أنك ممكن تنشريه وتسجليه كمان.. بصوتى يعنى.. إيه رأيك؟ ما تفكريش فى الفلوس من ناحيتى.

اندهشت مديحة قليلاً، فهى تعرف أن صالح جودت رغم كرمه الشهير لا يفرط فى حقوقه المادية مطلقًا، بل هو يتخذها مقياسًا لتقديره المعنوى. ولكنها حين تسلمت المخطوط، كان صالح جودت قد تسلم شيكًا قيمته ستة آلاف دينار كويتى. وقد أصر على ألا يفتح حسابًا به خارج مصر فتقاضى ١٢ ألف جنيه مصرى فى القاهرة.

وبدأ المسئولون عن النشر يقرءون المخطوط، وكان تقريرهم أنه جاء مطابقًا للمواصفات وفيًا بالاتفاق المعقود بين الجهة الكويتية والجهات المصرية، ملبيًا «الرغبة السامية» لأمير الكويت.

كان عنوان الكتاب «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر». وقد نهج فيه المؤلف نهجًا تسجيليًا، فاستعرض حياة الرئيس منذ الطفولة إلى الوفاة.

وكان أحد المسئولين عن نشر المخطوط وتسجيله على أشرطة ممن يمكن أن نطلق عليهم اسم «الناصريين المتطرفين»، فقد هز

رأسه معلقًا: إنه كتاب رائع لدرجة أننى أشك فى موافقة صالح جودت على وضع اسمه فوق الغلاف. صالح جودت ليس منافقًا كما يظن البعض، لأنه غنى للملك ومحمد نجيب وعبد الناصر. إنه يريد أن يعيش، ولكن قلبه وعقله ضد عبد الناصر، فكيف يسمح لنا بتوقيعه على مثل هذا الكتاب؟

وأجابت مديحة يسرى: ليس توقيعه فحسب، وإنما صوته أيضًا. المطلوب أن يسجله بصوته على شريطين، فالكتاب معد للقراءة والسماع. سألها الأخ الكويتى ببراءة: وما الحكمة فى التسجيل الصوتى. إنه ليس قصيدة أو أغنية أو تمثيلية. واكتفت مديحة بأن تجيب: هذا هو المطلوب، اسألهم أنت!

وفى نوفمبر - تشرين الثانى ١٩٧٠ صدر الكتاب مطبوعًا ومسجلاً على شريطين، وكتب على ظهر الغلاف «اسمع هذا الكتاب على شريطين (كاسيت) كل منهما ٦٠ دقيقة». وأنه من إنتاج «شركة الموارد الثقافية والترفيهية. ص. ب ٢٢٨ الكويت» بصوت صالح جودت وتنفيذ مديحة يسرى. ولم يذكر سعر الكتاب، ولم يطرح علنًا فى الأسواق، ولكنه وزع بطريقة سرية على بعض الناس ولم يعرف عنه الجمهور الواسع شيئًا.

ماذا كتب صالح جودت، وماذا قال بصوته؟ قبل ذلك افتتحت الكتاب قصيدة باسم «سمير غبور» جاء فيها عن «الجماهير» يوم رحل القائد:

وتمنت فى حنايا النعش لو نامت.. وقاما

كانت الناس على النعش قلوباً تترامى

وتنادى: لم لا يحييه من يحى العظاما

لم لايبقيه كالنيل وكالشمس دواما

ثم يبدأ صالح جودت «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر» بقوله (ص ٩): «عاشت مصر أجيالاً طويلة فى انتظار البطل..

وكانت الأقدار تصنع هذا البطل منذ حين، وتعده للوثبة الكبرى التى انطلقت فى ٢٣ يوليو فى سنة ١٩٥٢». واستطرد قائلاً إن مصر أنجبت في تاريخها الحديث كثيرًا من الأبطال كعمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، ولكنهم جميعًا كانوا زعماء محليين ينادون «مصر للمصريين» أما جمال عبد الناصر «فقد نظر إلى مصر كجزء لا يتجزأ من كيان أكبر، هو الأمة العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى» فأصبح زعيمًا عربيًا «ثم نظر إلى الأمة العربية كجزء من عالم أكبر» فأصبح زعيمًا للعالم الثالث.

وراح صالح جودت يعدد منجزات عبد الناصر فى النقاط التالية، انقلها حرفيًا:

١ - «كان لثورة البطل على حلف بغداد أثرها فى تقويضه، فقد إنهارت الملكية فى العراق، وسقط نورى السعيد بطل هذا الحلف، وقامت فى بغداد ثورة كثورة مصر فى يوليو ١٩٥٨» (ص ٤٥).

٢ - «وقف وقفته المشهورة فى الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ـ

ذكرى طرد الملك - يعلن حدثًا من أكبر أحداث التاريخ المصرى: تأميم قناة السويس» (ص ٥٤).

٣ - «راح البنك الدولى ودول الغرب - وفى طليعتها الولايات المتحدة الامريكية - تساوم وتضع القيود والشروط للمساهمة فى بناء السد العالى... بينما الاتحاد السوفييتى يتقدم بعرض سخى يعرض فيه تقديم ما يعادل أربعمائة مليون دولار، وهو مبلغ كاف لبناء السد تمامًا، بغير فوائد، على أن يسدد خلال ستين سنة. واطمأن البطل إلى مصير السد العالى» (ص ٥٤).

٤ - «كانت الوحدة نتيجة طبيعية للتفاعل العربى، ولجهاد البطل فى سبيل دعم الفكرة العربية وتأصيلها فى النفوس لمواجهة إسرائيل والاستعمار عامة» (ص ٦٤).

٥ - «الشعب الذى تمثلت كل آماله فى البطل، حتى بعد النكسة، كان يرى أن بقاءه هو الأمل الباقى فى إزاحة الغمة والسير بالسفينة إلى بر الأمان. وخرجت القاهرة برمتها، برجالها ونسائها، وشيوخها وأطفالها، غير مبالية بالظلام ولا بالغارات، وسارت إلى بيت البطل تتوسل إليه أن يبقى. وجاءت الملايين من كل فج عميق من أنحاء مصر تردد نفس الصرخة. ولم يبرح الناس مكانهم حول بيت عبد الناصر، إلا عندما طلع الصباح التالى، ورأى البطل أن آمال الأمة معلقة به، وأن الشعب مصر عليه، رغم النكسة، لأنه هو الوحيد القادر على تحويلها إلى نصر» (ص ٩٣).

٦ - «بدأ يرأب الصدع، ويطهر الانحرافات، ويكفل الحريات،

ويبحث عن الرجال الصالحين، ويعيد بناء الجيش الذى ذهب أكثر رجاله وأكثر عتاده، ويوثق العلاقات بالاتحاد السوفيتى الذى أمد مصر بكل ما يكفى لها إعادة بناء قواتها البرية والجوية» (ص ٩٥).

٧ - «وجاء اليوم الذى شعرت إسرائيل فيه بأن ساعة الصفر تقترب، وأن القوات المصرية أصبحت قادرة على شىء أكثر من الردع، هو العبور» (ص ٩٩).

٨ - «كان البطل يحس أن الموت يلاحقه، وأنه يريد أن ينجز رسالته الأخيرة ويوقف نزيف الدماء فى الأردن، ويحفظ على الأمة العربية وحدتها، وهى أمل النصر قبل أن يموت» (ص ١١٢).

٩ - «وفى الساعة الحادية عشرة من المساء.. روعوا بالنبأ.. روعوا بصوت أنور السادات، باكيًا، ينعى لهم أكبر الآمال فى تاريخ مصر والأم العربية. وشقت القلوب، وخرجت القاهرة كلها.. بكل الملايين الخمسة التى تعيش على أرضها.. تبكى طول الليل.. وأضيفت إليها جموع أخذت تزحف على القاهرة من جميع أنحاء الجمهورية، وفى جميع فجاج الأمة العربية.. وظلت الجموع تتكاثر حول الفاجعة الكبرى، وتصل وفود الملوك والرؤساء وممثلو الشعوب والمجالس النيابية والهيئات الشعبية من جميع أنحاء العالم، ليشيعوه إلى مثواه، فى مشهد لم يروع التاريخ بأروع منه، ولا أشجع منه. وذهب البطل إلى لقاء الله. وترك وراءه أروع صفحة فى سجل الخلود» (ص ١٣٧، ١٣٨).

بهذه السطور يختتم صالح جودت «قصة كفاح البطل جمال

عبد الناصر»، ولكنه أراد أن يثبت قصيدته التى كتبها غداة وفاة الرئيس، فنشر على الصفحتين (١٤٠ و ١٤١) نصها الكامل نجتزئ منها بعض الأبيات فحسب. تحت عنوان «أغنية على قبر البطل» يقول:

تملأ الأسماع والأبصار إيماناً ووعياً

كنت إلهاماً ووحياً

ترسم الدرب لشعب شاء أن تحيا ليحيا

غير أن الدهر خلاف التمنى

فأعنى أيها الصبر أعنى

كيف أبكى وأغنى؟

إلى أن يقول:

التمسنا فى بطولاتك إشعاعاً ووهجا

وجعلناك محجاً

ووجدنا فى وصاياك لنا العهد المرجى

لخطى المستقبل الحلو الأغن.

من يتصفح الكتاب دون عناء التأمل العميق، سوف يلاحظ مباشرة أنه أشبه ما يكون بمنشورات مصلحة الاستعلامات أو مطبوعات التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة، أنه يدرج بسهولة فى قائمة «كتب بلا مؤلفين» فهو لا يحتاج إلى كاتب يؤلفه، وإنما إلى

أرشيف. ولأن الكتاب قد تم إنجازه ونشره وتسجيله فى شهر واحد بعد وفاة الرئيس، ولأنه أيضًا لم يوزع مع الباعة ولم يكتب عليه سعر النسخة، ولأنه طبع على ورق مصقول وامتلأ بالصور النادرة، على ورق كوشيه.. فإن أحدًا لم يدر به. وقد كان هذا مقصودًا!!

أن الذين اختاروا «اسم» صالح جودت ليضعوه على الغلاف، وتعمدوا - لأول مرة - أن يسجل الكتاب بصوته على أشرطة، كانوا يضربون عصفورين بحجر واحد. العصفور الأول هو الاستجابة لرغبة أمير الكويت فى تخليد الرئيس الراحل ومساهمته الشخصية فى ذلك. والعصفور الآخر هو ثقتهم بلا حدود فى عداء صالح جودت لعبد الناصر، فأعدوا الكتاب وسجلوه بصوته ودفعوا له الشيك - الهدية. ولم يكن مهم لديهم توزيع الكتاب على الإطلاق، وإنما كانت «الوثيقة» هى كل ما يعنيهم من الأمر كله.

ووقع صالح جودت فى المصيدة، فأضاف إلى المعلومات الارشيفية التى وضعت تحت تصرفه، بعض العبارات الإنشائية الحماسية. وكان الصوت الذى كلم مديحة يسرى فى البداية واضحًا غاية الوضوح حين تسلمت المخطوط مطبوعًا بالآلة الكاتبة ممهورًا بتوقيع صالح جودت: الأصل لدينا ولكن احتفظى بهذه النسخة أيضًا وأعيديها بعد الطبع فورًا. وجلس صالح جودت أمام الميكروفون ساعات طويلة، وهو المذيع القديم، ليسجل على نفسه شهادة حية إلى جانب عبد الناصر.

* * *

ودارت الأيام بسرعة مذهلة.. وبعد أقل من ستة أشهر كانت مصر تشهد أول نقطة تحول حاسمة فى تاريخها التالى لوفاة الرئيس..

كانت حركة ١٥ مايو - أيار ١٩٧١. وقد كان يومًا «شخصيًا» فى حياة صالح جودت، يومًا شخصيًا إلى أقصى الحدود.

كان حماس صالح جودت لما جرى فى ذلك اليوم أكثر عنفًا وتوترًا من حماس الآخرين. كان حماسًا مشوبًا بالحقد والثأر والخوف مرة واحدة. نفاقه الماضى لكى يعيش فضحته أحداث الساعات الأخيرة من ١٥ مايو ١٩٧١. لم يكن صالح جودت منافقًا حين هب مذعورًا من نومه يؤيد ما جرى، وإنما كان مشوقًا إلى هذا اليوم غاية الشوق، لولا «سره الخفى» الذى لا يعرفه أحد! القصيدة يعرفها الجميع ويضمونها إلى قائمة أشعاره فى الملوك والأمراء والرؤساء السابقين واللاحقين. أما الكتاب والأشرطة فلم يعرف أمرهما إلا الأقلون.

واشتبكت أسلاك التليفون من جديد بين القاهرة والكويت. كانت الأصوات جديدة، ولكن الأجهزة هى هى. وكانت مديحة يسرى على الطرف الآخر تقول: ليست لدىّ نسخة واحدة من الكتاب ولا من الأشرطة.

يبدو أن جهازًا آخر سبق الفرسان الجدد فى الاستيلاء على بقية النسخ والتسجيلات. ولم يعد ممكنًا تنفيذ حكم الإعدام فى الورق المطبوع أو الأشرطة، رغم أنها لم توزع على الجمهور العام: وأسقط

فى يد صالح جودت والذين وراءه!

حتى كان يوم..

فتح فيه صالح جودت النار على عبد الناصر والناصرية، قبل على أمين ومصطفى أمين والباشوات السابقين والحاليين، قبل إحسان عبد القدوس وموسى صبرى وسابا حبشى ووحيد رأفت، فتح صالح جودت النار. قال ببساطة شديدة إن ثورة ٢٣ يوليو لم تتمتع بالشرعية طيلة العشرين سنة الماضية، نظامها لم يكن شرعيًا، وكذلك إجراءاتها وقوانينها ودساتيرها وتشريعاتها. الشرعية تبدأ من ١٥ مايو ـ أيار ١٩٧١. وفى عدد «المصور» الصادر بتاريخ ٢١ يونيو ـ حزيران ١٩٧٤ وتحت عنوان «هل تبقى الثورة إلى الأبد؟» أجاب بالنفى معلقًا على زيارة الرئيس الأمريكى نيكسون بأنها كانت «استفتاء للشعب فى رغيف عيشه وفى لون رغيف عيشه، فى النظام الاقتصادى الذى عاشه منذ قيام الثورة، فى الأيديولوجية التى فرضت عليه، والأيديولوجية التى يتمناها لنفسه». ويتساءل فى عدد «المصور» بتاريخ ٥ يوليو ـ تموز ١٩٧٤ عن كلمة اليسار «من أين جاءتنا هذه الكلمة التى روّج له المروجون خلال السنوات العشرين الماضية؟» وفى عدد ١٦ أغسطس ـ آب ١٩٧٤ من نفس المجلة يرى فى ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكى «جسرًا للعبور من نظام إلى نظام آخر يحقق مبادئ الديموقراطية الحقة كما أرستها الثورة الفرنسية» لأن الاتحاد الاشتراكى بوضعه الديم تمتد جذوره إلى «نظم الكتلة الشرقية» (!!) ويرى فى عدد ١٤ يونيو ـ حزيران ١٩٧٤

أن «مصر منذ حرب أكتوبر قد قررت أن تكون مصر.. مصر المصرية الخالصة». وفى العدد ٣١ مايو ـ أيار ١٩٧٤ وما قبله وما بعده يحكى سيلاً من القصص والأساطير والكوارث التى لحقت بعليه القوم (لا بالطلبة والعمال والفلاحين والمثقفين) ويطالب بلجنة تتعقب الذين تولوا الأمور «منذ سنة ١٩٥٢ إلى اليوم». ويذكر فى عدد ١٩ يوليو ـ تموز ١٩٧٤ أن المقارنة بين السوفيات والغرب ظالمة للغرب «لأن الحفار الذى نستورده من الاتحاد السوفيتى يعيش سنة واحدة، بينما الحفار الذى نستورده من إنجلترا يعيش أكثر من عشر سنوات». وفى عدد ١٣ سبتمبر ـ أيلول ١٩٧٤ يخاطب «جلالة الملك» حسين مؤكدًا «أقولها بكل تأدب، لأن الأيام السود علمتنا أن مخاطبة الملوك والرؤساء بالكلمة الخشنة كانت من أسباب مدلهمة سنة ١٩٦٧.. وعلمتنا أن الكلمة الحلوة هى التى تقرب الجميع إلى مثل النصر الذى حققناه سنة ١٩٧٣».

ويحتاج الأمر إلى مجلدات كاملة للاستشهاد بأقوال صالح جودت المأثورة فى ثورة ٢٣ يوليو وإنجازات ما بعد ١٥ مايو ـ أيار ١٩٧١. ذلك أن الرجل ـ قبل غيره ـ ارتاد الهجوم على عبد الناصر من موقع الثورة المضادة، ولأن الرجل ـ أكثر من غيره ـ ظل أمينًا لهذه القضية وحدها منذ ذلك التاريخ إلى الآن.

وليس مهمًا أن صالح جودت قد تسلق أعلى المناصب فى ظل عبد الناصر، وأنه كان من أدوات السلطة البارزة فى الحياة الثقافية، وأنه رغم وجهه القبيح كان مقبولاً من المستويات السياسية

والتنظيمية والرسمية كافة، وأنه جنى أرباحًا هائلة من هذا كله.. ليس مهمًا القول الأخلاقى بأنه تنكر لا سيادة! أنها فى خاتمة المطاف «عبرة سياسية» لأية سلطة تنشد الثورة بركائز فكرية للثورة المضادة!! ليس مهمًا أن ثورة يوليو لم تضر صالح جودت فى رزقه أو فكره لحظة واحدة حتى يحقد عليها كل هذا الحقد، لأن كتابه المسجل يرى أنها أعظم الثورات وقائدها أخلد الرجال. ليس المهم أيضًا اكتشاف «النفاق» فى أمثال هذه النماذج التى تحيا حياتها صاحبة الجلالة فى كل العهود وتأكل فوق كل الموائد.

وإنما المهم قبل ذلك كله وبعده: لعبة الأجهزة! إن الكتاب المحكوم بالاعدام لم يكن تعبيرًا حقيقيًا عن فكر صالح جودت. وإذا كان أحد الأجهزة قد استطاع الحصول على «وثيقة مطبوعة مسجلة صوتيًا» دفاعًا عن عبد الناصر، فإن هذا لم يمنع صالح جودت من كتابة عشرات المقالات ضد عبد الناصر. وهو على استعداد لتسجيل هذه المقالات على أشرطة وتعبئتها فى أسطوانات، وحين هدده شاب كويتى متحمس لعبد الناصر هو أحمد أبو مطر بالكتاب والشريطين، قال لأصدقائه فى ركن سميراميس بالقاهرة وهو يقلب مجلة «الرائد» الكويتية:

- لقد اعترفت ميمى شكيب أمام النيابة والمحكمة أنها تدير بيتًا للدعارة، ومع ذلك برئت ساحتها من الجرم المشهود. التسجيلات ليست قرينة ولا دليلاً.

علق توفيق الحكيم وهو ينظر فى وجه ثروت أباظة بعين ووجه

إبراهيم الوردانى بعين أخرى:

- ولا الكتاب يصلح دليلاً.

والحكيم - كما نعلم - رجل قانون. ولكنه أيضًا يحب الشعر. ولعل الفرق بين كتاب صالح جودت عن عبد الناصر ومقالاته ضد الناصرية، هى عند صاحب نظرية «التعادلية» كالفرق بين قصيدة صالح جودت القائلة:

بارك «الفاروق» فيكم قلماً

لم تحركه إلى الزيف يمينى.

وقد ظهر البيتان هكذا لأول مرة، ولكنه حين أعاد طبع «ليالى الهرم» قال:

بارك «الرحمن» فيكم قلما

لم تحركه إلى الزيف يمينى.

وقصيدته الأخرى - تأملوا الفرق - التى يقول فيها:

لم يزل يحمل جرحًا من فلسطين الأبية

قل لهم أنا استجبنا لنداء الناصرية.

أم أن توفيق الحكيم لا يحب الشعر ويحب أن يقارن - بدهاء - بين كتاب صالح جودت وكتابه «عودة الوعى»؟ إنهما الكتابان الغريمان، أم أن الجهات التى أصدرتهما واحدة وأن تغيرت العناوين والأسماء والشيكات؟

التاريخ وحده سيجيب. ولكن الغاية ووسائلها تبقى واحدة: حين مات عبد الناصر كتب أحد خصومه ويدعى صالح جودت كتابًا عن «قصة كفاح البطل»، وبعد أربع سنوات من رحيله كتب أحد مؤيديه ويدعى توفيق الحكيم كتابًا ضده. الكتابان صدرا فى بيروت والكويت: الأول نشرته وسجلته مديحة يسرى، والآخر نشره محمد المعلم فى دار الشروق. والكتابان - أخيرًا - لا يحتاجات إلى «تأليف» وإمعان للفكر، وإنما هما من قبيل التسجيل الوثائقى فى لعبة الأجهزة.

.. وسقط آخر العمالقة!

خبر صغير تناقلته وكالات الأنباء مساء ٢٤ - ٩ - ١٩٧٤ هو أن جلالة الحسن الثانى ملك المغرب قد أنعم على الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى بفيللا خاصة فى طنجة، وفتح له حسابًا فى أى بنك يختاره بما قيمته مائة دينار يوميًا.

كل ما استطاع أعداء جواهرى أن يقولوه، هو أن المكافأة الملكية التى تلت «وسام الكفاية الفكرية» - وقد ناله الشاعر منذ شهور قليلة - أكبر من حجم القصيدة التى كتبها فى مائة بيت مديحًا لمآثر الملك المغربى.. ذلك أن البيت الواحد منها لا يساوى دينارًا كل أربع وعشرين ساعة! وأقصى ما استطاع أعداء الجواهرى أن يفعلوه هو أنهم عادوا بذاكرتهم - أو ذاكرة آبائهم - إلى الوراء ليعلقوا، بأن الرجل بدأ حياته شاعرًا للبلاط وأنهاها شاعرًا للبلاط، وما بين البداية والنهاية مدح جميع الحكام بغير استثناء، فما الجديد، وأين المفاجأة؟!

ولكن أعداء الجواهرى ليسوا هم «كل» جمهور الشاعر الكبير،

ولا هم «التاريخ». أن الشعور العميق بالأسف والحزن، هو الشعور الأقوى والأغلب عند الذين كانوا يطمحون لشاعرهم فى السراء والضراء نهاية مغايرة. فرغم الانعطافات المأساوية فى حياة الجواهرى وشعره كافة، وقف الرجل فى لحظات مصيرية حاسمة إلى جانب الشعب والثورة. كذلك كانت أهمية الجواهرى إنه - بمفرده - ظل الاستثناء الشعرى الوحيد الذى يجمع بين الكلاسيكية ونبض العصر والأمة. من هنا ينبغى أن يكون شعورنا بالأسف، لا بالتشفى، والحزن لا الشماتة.. فالجواهرى، بعد أن يذهب الشخص، يبقى الشعر، جزءًا لا ينفصل عن تراثنا بكل سلبياته قبل إيجابياته؛ أى أن عاره سيلحق بنا فى خاتمة المطاف لأنه منا، ومجده أيضًا لنا.

ولكن «العبرة» أيضًا وأيضًا تظل قائمة، لا تلغيها أية مشاعر أو عواطف وانفعالات. وقد أتاحت لى سلسلة من المصادفات أن استخلص هذه العبرة فى حياة الجواهرى ومأساته، منذ كنت فى إبريل - نيسان ١٩٦٩ فى بغداد عضوًا بالوفد المصرى لمؤتمر الأدباء العرب.. وكان الجواهرى قادمًا من براغ لأول مرة بعد غيبة سنوات طويلة، وعلى إثر برقية من وزير الداخلية العراقى يطلب فيها «أن يعود شاعر العرب الكبير إلى وطنه لأنه بحاجة إليه!». وفى العراق - أقول، لا بغداد وحدها - شاهدت بعينى محبة الجماهير لشاعرهم الغائب. ولمست الموقف الحقيقى للسلطة عن قرب، وأشهد بكل أمانة الضمير والإحساس بالمسئولية، إن الحكم العراقى الراهن أعطى الجواهرى ما لم يعطه أى نظام عربى آخر لشاعر أو أديب

فى حياته. وهو عطاء ظل الجواهرى يترنم به كالمجنون وهو يسرد علىّ تفاصيله، حين التقيت به بعد اشهر قلائل ـ فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩ بالتحديد ـ فى براغ. هذا على الرغم من أن الحكم العراقى كان يعرف الجواهرى جيدًا، يعرف أن رصيده وحده هو الذى يشفع له وليس مستقبله، يعرف أيضًا أنه لن يطيق «استقرارًا» من أى نوع كان. رغم ذلك أعطاه أسباب الاستقرار المادى والمعنوى كافة. وبعد أيام قليلة من انتهاء المؤتمر الذى ألقى فيه الجواهرى قصيدة دون المتوسط، سافر الرجل إلى براغ. قال إنه مضطر للذهاب لتصفية «متعلقاته» هناك.

وقد وفر لى صديقى المناضل مهدى الحافظ ـ السكرتير العام لاتحاد الطلبة العالمى آنذاك ـ عدة جلسات مع الجواهرى، سجلتها فيما بعد بكتابى «مذكرات ثقافة تحتضر». وفهمت من الشاعر أنه على الرغم من أزمة الإسكان الحادة فى براغ، فإن الحكومة التشيكية قد وهبته ـ تقريبًا ـ منزلاً جميلاً. وهو الآن بالغ الحرج، لأن الدوائر المختصة قد علمت بأن ظروفه مع بغداد قد إختلفت وأنه مدعو للعودة إلى وطنه، ومن ثم عليه أن يسلم المنزل. سألت الجواهرى بدهشة وبراءة حقيقية: لقد عدت فعلاً للوطن، وقد جئت لتصفى بقايا وجودك هنا، فما حاجتك إلى المنزل؟ أجابنى بدهشة مماثلة ولكن دون براءة: المنزل؟ وبراغ؟ والراتب؟ والأولاد؟ لن أترك تشيكوسلوفاكيا بأية حال!

ولم أسجل ذلك فى حديثى المنشور معه!

وبعد أقل من عامين بقليل..

وبعد منتصف إحدى ليالى سبتمبر ـ أيلول ١٩٧١ كان التليفون فى منزلى يدق دقًا متواصلاً.. غالبت النوم ورفعت السماعة، وإذا بالطرف الآخر على الخط صوت الجواهرى! سألته: هل تتكلم من براغ؟ أجابنى: كلا! أنا هنا فى القاهرة، وصلت توًا من المطار، تجدنى فى فندق النيل. هنأته بسلامة الوصول وأنا أكاد لا أعى شيئًا مما قال ولم أفهم لماذا جاء ولا كيف، وقلت له إن الوقت متأخر وأننى سأمر عليه فى الصباح الباكر قبل ذهابى إلى عملى فى «الأهرام». ولكنى فوجئت بصوته يعلو ونبرته تنفعل وهو يصر على نزولى فورًا.

بدأت أصحوا وأنا أفكر. ما الحكاية؟ الجواهرى فى القاهرة؟ لقد دعاه لطفى الخولى منذ عامين باسم «الطليعة»، وكان اسمه مدرجًا فى القوائم الممنوعة من دخول مصر، ولكن الوساطة أفادت ووجهت إليه الدعوة رسميًا. تذكرت أننى سألته فى براغ، لماذا لم يلب دعوة «الأهرام» و «الطليعة» فأجابنى بما لم يخطر على بالى حينذاك مطلقًا: ولماذا لا يدعونى يوسف السباعى؟ لطفى والجماعة إخوان. لكن السباعى هو المسئول عن الثقافة. أريد دعوة رسمية لا دعوة أخرى! أريد لمصر أن تدعونى بعد أن حرمت منها عشرين عامًا لا مجلة «الطليعة»!.

ولم أنقل هذا الكلام يومها إلى لطفى الخولى. وعبثًا حاولت إقناعه أن جمعية الأدباء التى يرأسها يوسف السباعى ليست أكثر

رسمية من «الأهرام». وإن «الطليعة» تمثل مصر أكثر مما تمثلها جمعية الأدباء. وأن يوسف السباعى عنوان كبير للرجعية الأدبية وهو شاعر ثورى. وأن عليه ألا يتصور الأدباء فى جمعية الأدباء إذا كان يريد أن يقابلهم، فهم فى كل مكان إلا فى جمعية الأدباء. وأن وأن.. إلى أن بح صوتى وتلاشت قواى على الحوار، فقد رأيته مصممًا على تلقى دعوة رسمية من «الحكومة» وبالذات من يوسف السباعى!

تذكرت ذلك كله وأنا فى طريقى إلى فندق النيل القريب نوعًا من منزلى والساعة تشير إلى الثانية صباحًا. وفى غمرة اللقاء الحار نسيت كل شىء وعانقته بمحبة حقيقية واصطحبته إلى شوارع القاهرة ومقاهيها وأحيائها الشعبية، خصوصًا حى الحسين ومقهى الفيشاوى. قابلنا ليلتها أمل دنقل وبعض الأدباء الشباب الذين التفوا من حوله فى مودة صادقة. كانت أشعاره ضد الطغاة منقوشة فى القلوب وفوق جدران الزنازين بالسجون والمعتقلات المصرية. وحين عدت أول عام ١٩٧٠ من أوروبا إلى القاهرة سألنى الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله - رئيس التحرير بدار المعارف وقتها - ما إذا كان من الممكن الاتفاق مع الجواهرى على نشر أعماله الكاملة. قلت له لست أدرى، فقد صدرت لهذه الأعمال طبعات مختلفة، منها طبعتان حديثتان فى بيروت، ولا أعرف نصيبهما من الكمال. ولكن أحد الناشرين يتهم الشاعر بأنه باع نفس «الأعمال الكاملة» لناشر آخر فى الوقت ذاته. وكان الجواهرى فى طريقه إلى ناشر ثالث اكتشف اللعبة فى الوقت المناسب. على أية حال وصلت الطبعتان

أسواق القاهرة وبيعتا كلتاهما. وكان الشباب أكثر من غيرهم إقبالاً على شعره، رغم انتمائه الفنى إلى عصور مضت. كانت حركة الطلاب والمثقفين عموماً منذ عام ١٩٦٨ قد بعثت الشعر «الثورى» إلى ساحة الوجود النضالى الفاعل. وحين رأى الأدباء الجدد الشاعر العجوز بينهم بلحمه ودمه، فرحوا به وأحاطوه بكل رعاية وحب. حتى عندما سكر القصاص يحى الطاهر عبد الله فى «الأتيليه» ـ نادى الكتاب والفنانين ـ وداعب الجواهرى مداعبة خشنة، سرعان ما اعتذر وعاد الجو إلى الهدوء.

لم أكن قد سألت الجواهرى عن سبب حضوره المفاجئ حين سمعته يروى للشباب ليلة وصوله برفقتى أنه جاء ليشترك فى المهرجان الأول لرثاء جمال عبد الناصر بعد مرور عام من رحيله، بدعوة رسمية من يوسف السباعى وجمعية الأدباء! لم يشعر الرجل طبعاً بوقع كلماته على آذان الشباب، وإنما كان يشعر فحسب بوقع حضوره بينهم. ولأن هذا الحضور كان باعثاً لسرورهم فقد اكتفى بذلك. كانت جمعية الأدباء قررت الاشتراك فى الذكرى الأولى للرئيس الراحل بعقد أمسية فى القاعة الكبرى للاتحاد الاشتراكى تحييها مجموعة من الشعراء العرب يتقدمهم صالح جودت.

وهنا يجب أن أتوقف قليلاً.. فقد تضافرت مجموعة من الظروف التى أدت فى النهاية إلى وصول الجواهرى مطار القاهرة. كان سفير مصر فى براغ ـ مجدى حسنين ـ يحب الشاعر ويرغب فى إزالة الجفوة غير المبررة بينه وبين مصر. وهى جفوة افتعلتها أجهزة

الأمن المصرية عام ١٩٥٩ حين وقع الخلاف بين الحكم فى العراق والحكم المصرى ووضعت أسماء الكثيرين من المناضلين العرب فى قوائم الممنوعين. وكان من بينهم اسم الجواهرى. ولكن مجدى حسنين كان يرغب - وقد تغيرت ظروف عديدة - فى أن يقوم الشاعر العراقى بزيارة مصر. وأبلغ هذه الرغبة إلى يوسف السباعى الذى نام طويلاً، رغم كثرة المناسبات، واستيقظ فجأة ذات يوم. كان «اليوم» مشحونًا بالعلاقات المتوترة بين القاهرة وبغداد. وكان «اليوم» ذكرى عبد الناصر الذى من الجواهرى فى عهده من زيارة مصر! هكذا أقبلت المناسبة وكأنها من «القدر» فقام السباعى على الفور بتلبية رغبة السفير المصرى فى تشيكوسلوفاكيا - وكان على وشك مغادرتها - ودعا شاعر «العراق» الكبير للاشتراك بإحدى قصائده، وهمس لى الجواهرى بحذر شديد كأنما يبيح لى وحدى بسر خطير: هل تعرف من الذى منعنى فى السابق من دخول القاهرة؟ ولم ينتظر بل أجاب على الفور: إنه على صبرى!

وضحكت فى داخلى بمرارة، فقد باح لى بهذا «السر» بعد أيام مليئة لحد التخمة بالأحداث من حضوره. لم ينتبه الجواهرى إلى أن أحدًا - ولو هلفوتًا - لم يستقبله فى المطار. ولم ينتبه مرة أخرى إلى أن «الأحد» الذى جاءه فى التاسعة صباحًا موفدًا من يوسف السباعى ضابط سابق يدعى عصام الحينى! كانت الخامسة والنصف صباحًا حين عدت إلى منزلى وكانت الثامنة والنصف حين عدت إليه. وابتهج عصام الحينى عندما رآنى كأنى خلصته من ورطة، معتذرًا عن يوسف بك لمشغولياته العديدة ولأن الطائرة

تخلفت عن موعدها، وملمحًا إلى أن «غالى بك فيه البركة.. مش كده يا فندم؟».

وذهلت! لم أفهم شيئًا ولم أدر بماذا أجيب. ولأن الشعراء عمومًا نرجسيون وفى مقدمتهم الجواهرى، فقد وجدتنى أخدش أوهامه وأنا أوجه الحديث إلى الضابط السابق اللاحق بمعية يوسف السباعى، قائلاً: لقد استقبل هيكل سارتر عام ١٩٦٧ على سلم الطائرة وضاقت قاعة الشرف بالمثقفين الذين جاءوا لاستقباله. وكانت «الطليعة» هى التى دعت جارودى ومكسيم رودنسون فكانت زيارتهما موضع الحفاوة الشاملة والترحيب العملى الكامل. فهل تقل جمعية الأدباء أهمية عن إحدى المجلات؟ كان كلامى فى الحقيقة موجهًا إلى الجواهرى. ولكنى استأنفت الحديث مع الحينى: «أننى مفاجأ بزيارة الجواهرى ولو أنكم قلتم لى ولغيرى لاستقبلناه بأكثر مما استقبلنا المفكرين الفرنسيين: وعلى أية حال فأنا أرافقه كصديق فليست لى أية صفة رسمية». واكتفى الضابط المدنى الأنيق بابتسامة جامدة، وهو يعلق فى برود مثير «البركة فيك يا فندم». ثم استأذن معتذرًا بموعد عمله مشيرًا إلى أن دار الأدباء قريبة من الفندق واعدًا بأنه سيحضر فى المساء.

.. وعلى الفور أخذت الجواهرى من يده إلى «الأهرام».

لم يكن لطفى الخولى قد وصل مكتبه، فقمت بتعريفه إلى جميع الزملاء فى «الطليعة». لم يكن ـ بالطبع ـ يحتاج إلى تعريف. ولكنهم حين رأوا الجواهرى بينهم شخصيًا أحاطوه بكل خلجات أعصابهم

ومشاعرهم الفياضة بالحب. وتلفتت للطفى ولويس عوض. وحضر الناقد الكبير فى البداية فرحب بالشاعر الكبير ترحيبًا حارًا قائلاً له: أنت آخر العمالقة. والتقط أحمد بهجت هذا التعبير فكتب مقالاً فى «الأهرام» هو خلاصة حديث مع الشاعر. وأقبل معين بسيسو، ومحمود درويش، ويوسف إدريس على التوالى، فأخذوا يترنمون بشعره القديم وذكرياتهم الشخصية مع هذا الشعر.

وكان لطفى الخولى فى مكتبه منذ ساعة بانتظارنا ونحن لا ندرى فذهبنا إليه. وبعد الأحضان والقبلات، قال له لطفى: لن أعاتبك على عدم تلبيتك لدعوة «الطليعة»، ولكن بعد إنتهاء دعوة جمعية الأدباء فإننا نستبقيك أيامًا أخرى باسم «الطليعة». ووافق الجواهرى شاكرًا. وطلب منى لطفى أن أكون فى تصرف شاعرنا فعلق الرجل: أنه ابنى.

وشرعت الأقلام الوطنية والتقدمية ترحب بمقدمه وتعرف به أوسع الجماهير التى حرمت كلماته النارية زمنًا طويلاً، وتطلب إليه اللقاء معها ومع الناس التى تحبه. ولكن مساء ذلك اليوم نفسه شهد نقلة جديدة فى السيناريو.. فقد وصل عصام الحينى إلى الفندق فى المساء وراح يتكلم عن ضرورة انتقال الشاعر الكبير إلى «شبرد» إذا لم يكن مرتاحًا لهلتون. ثم اصطحبنا إلى جمعية الأدباء. وكان بالانتظار يوسف السباعى وصالح جودت وإبراهيم الوردانى وبقية الحاشية. بادره صالح جودت «أهلاً أستاذنا» وأخذه الوردانى بالحضن، أما يوسف السباعى فكان دمثًا وناعمًا ومبتسمًا فى هدوء

كعادته. وبدأت الدردشة ـ من جانب صالح جودت ـ بالهجوم على الشعر الحر فايده الجواهرى مستثنيًا عبد الرحمن الشرقاوى ـ وكان موجودًا ـ والسياب وصلاح عبد الصبور والفيتورى. وأحسست من مناخ «المجاملة» أن وجودى سوف يسبب الحرج فاستأذنت معتذرًا بارتباط سابق.

لم تمض ساعتان أو ثلاث حين اتصل بى الجواهرى تليفونيًا، من جمعية الأدباء، يطلب منى أن ألحق به؛ لأنه لا يعرف الطريق إلى الفندق. وقام صالح جودت يودعه قائلاً: «أنت فى بيتك يا أبو فرات». ولم أتصور لحظة واحدة أن هذه الجملة نهاية حديث وبداية حدث، وليست لها علاقة بالوداع التقليدى أو الترحيب المصرى المعتاد.. حتى قال لى الجواهرى فى الطريق القصير جدًا من الجمعية إلى الفندق: اسمع، أنا هنا لست عدوًا لأحد! لم أفهم. شرح: على «الإخوان» أن يفهموا أننى هنا ضيف فقط، أو قل أننى فى بلدى.. وقبل أن أسأله عمن يقصد بالإخوان استطرد: وعلى أية حال فأنا لست شيوعيًا ولم أكن فى يوم من الأيام. الإخوان بيحبونى، على عينى ورأسى. والجماعة كمان بيحبونى. وقبل أن أسأله عمن يقصد بالجماعة أضاف: صالح جودت وجماعته طلبوا منى شعر لمجلة الهلال. وبيحبونى صحيح.

لم يترك لى أن أعلق..

ولم تترك لى كلماته أن أنام.. ظللت ساهرًا أحدق فى الفراغ وأفكر، ماذا يمكن أن يكون قد حدث بالضبط؟ وأكلنى الندم على

أننى تركته هاتين الساعتين. ولكنى ما أن استيقظت فى الصباح حتى دعانى تليفونه إلى طعام الإفطار. وقبل أن أقول له «صباح الخير» التقت إلىّ بعينين زائغتين وهو قادم من آخر القاعة كمن قرر أمرًا خطيرًا وقال: اسمع. سوف أبقى هنا فى مصر، لا شهرًا ولا شهرين، وإنما إلى الأبد. إنها حبى الأول والأخير. أبلغ الإخوان - لطفى أقصد - بهذا القرار حتى يتصرفوا!

وبهتّ! أصبت بالخرس تمامًا. وحين بدت بادرة حركة على شفتى ولم تفته «الصاعقة» التى ألمت بى، قال: طبعًا، هذا سر، سر خطير أقوله لك أنت وحدك، أنت موضع ثقتى، فلربما لا تكون الظروف عندكم مهيأة لبقائى، فإنى أرحل دون أن يعرف أحد شيئًا.

ولم اجب. ذهبت - فورًا - إلى لطفى الخولى.

سردت عليه ما سمعت. نظر إلىَّ مبتسمًا وهو يسألنى: هل تعرف الجواهرى جيدًا؟ إنه يتخذ هذا القرار اليوم ويتخذ نقيضه غدًا. قل له أهلا به فى أى وقت وفى كل وقت وليبق فى مصر ما شاء له البقاء شهرًا شهرين. إنه يحل فى قلوبنا قبل بيوتنا. ولكننا لا نتحمل مسئولية قراره الذى تحدثنى عنه، لأنه هو نفسه لايعرف مسئولية الموقف. إنه رجل مزاجى غير مضمون.

وفى المساء توجهت إلى الجواهرى لآخذه إلى قاعة اللجنة المركزية بالمقر الرئيسى للاتحاد الاشتراكى. وكانت المنصة تشهد منظرًا غريبًا: فغالبية الشعراء ممن يكرهون جمال عبد الناصر إن لم يكن بالشفاه فبالقلب وإن لم يكن بالشعر فبالنثر وإن لم يكن

بالعلن فبالسر. أما الشاعر الذى أحب عبد الناصر دون أجر - أحمد عبد المعطى حجازى - فقد أبعدوه عن الأمسية. لقد حضر، ولكنه لن يتكلم. هكذا كان الجو مشحونًا منذ البداية. وسقط جميع الشعراء، سقطوا فى مذبحة الكذب. أحمد رامى وصالح جودت وغيرهما ممن قضوا العمر ينتحبون على الماضى الملكى، يمدحون عبد الناصر بلا تحفظ، جمعوا تراث أسلافهم كله فى مديح الولاة والسلاطين والملوك، وصبوه على رأس عبد الناصر. ما عداه. ما عدا أبو فرات، فقد فاجأ القاعة بأن الراحل كان «عظيم المجد والأخطاء» وراح يعدد نواحى المجد ومكامن الخطأ، كما غازل مصر وشعبها غزلاً شديدًا، بالإضافة إلى براعته التمثيلية فى إلقاء الشعر، فاهتزت القاعة مرات عدة اهتزازًا عنيفًا.

كانت ليلة الجواهرى بلا منازع، وكادت تمر بسلام، لولا أن أحمد عبد المعطى حجازى كان فارسًا شجاعًا فاستوقف صالح جودت والجموع فى طريقها إلى الباب، وقال له كل ما يمكن أن يقال فى شاعر الملوك والبغايا أمام الناس جميعًا. وقد يبدى الموقف بأكمله استفتاءً جماهيريًا ساحقًا نجح فيه الشاعر الممنوع من الكلام وسقط فيه الشاعر الكذاب.

كان من الطبيعى أن نذهب مع حجازى إلى منزله أو إلى أى مكان، وإذا بأبى فرات يغمزنى فى ذراعى ويتجه بى إلى الخارج ويطلب تاكسيًا، وإلى الفندق. هرب من الانحياز إلى أحد الطرفين علنًا، وأراد أن يسمع منى «الأخبار». كانت بانتظاره رسالة مغلقة.

كانت تحوى خمسين جنيهًا مصريًا وكلمة صغيرة من مجلة الهلال بتوقيع صالح جودت، مكافأة له على قصيدتين قديمتين نشرتهما المجلة ترحيبًا بقدومه. وكانت «الأهرام» فى اليوم السابق أخذت منه قصيدته الجديدة عن عبد الناصر فسألنى كم سيدفعون إذا كانت مجلة صغيرة كالهلال دفعت كل هذا المبلغ على شىء قديم. ولم أجب. اكتفيت بالقول إن لويس عوض كتب مقدمة رائعة للقصيدة، وأنه لا ينبغى أن يقلق على نفاد نقوده لأن «الأهرام» ستتكفل بمصروفات إقامته. ودلفت إلى الموضوع الرئيسى وقلت له: الإخوان يرون أنك فى بيتك ولا ضرورة مطلقًا لطلب إقامة دائمة، لأن تفسيرها الوحيد هو «اللجوء السياسى». وأنت أعرف بالجو الراهن بين القاهرة وبغداد.

كان لنا موقفنا المستقل من الصراع المصرى العراقى فى ذلك الوقت، وقد بدا ساخنًا قبل رحيل عبد الناصر بقليل. كنت مثلاً، أنا وحجازى ورجاء النقاش وصلاح عبد الصبور ولويس عوض، أصدقاء للأستاذ أحمد فرج الله مستشار السفارة العراقية فى القاهرة. شاب يعشق الفكر والأدب والثقافة تعرفنا عليه حين كانت تصلنا عن طريقه دعوات من وزارة الإعلام لحضور مؤتمر أو مهرجان. وتوطدت بيننا وبينه صلة شخصية. وكان حظه مع القاهرة سيئًا، لأنه كان يحبها حبًا خاصًا، ولكنه عين بها فى أحرج الأوقات، أى والعاصفة فى أوجها وسماء العلاقات بين البلدين ملبدة بأكثر الغيوم كثافة. وعندما حوصرت السفارة العراقية ذات يوم أثناء التوتر العنيف بين العاصمتين، كنا نزوره هو وأسرته، وكان يزورنا

فى بيوتنا. وحين تأهب لمغادرة القاهرة كتب عنه لويس عوض فى الصفحة الثقافية «بالأهرام» كلمة مؤثرة.

كذلك حدث أن زار مصر الأستاذ شفيق الكمالى - وزير الإعلام وقتئذ - وكانت تربطنا به ولا تزال علاقة حميمة. تعلم فى القاهرة وعاش بين ناسها ودخل سجونها وأحبها كالعاشق من عمق أعماق القلب. ولكنه جاء أيضًا والعلاقات بين مصر والعراق فى ذروة الأزمة. قلت للطفى الخولى إن شفيق الكمالى هنا، وهو صديق قبل أن يكون وزيرًا، أو قل إنه رفيق نضال رغم الوزارة. وأحب أن نحتفل به. وأقترح رئيس تحرير «الطليعة» على الفور أن أدعوه إلى «الغداء». وفى الغرفة المخصصة لكبار الزوار بالطابق العلوى من «الأهرام» كان جميع أعضاء أسرة «الطليعة» يرحبون بضيفهم ويناقشونه فى السياسة. وظللت مع حجازى مرافقين لشقيق الكمالى حتى يوم وداعه للقاهرة، وقد منعنا من مصاحبته إلى المطار «حتى لا نتعرض لأى سوء ولو شبهة المؤاخذة» كما قال.

هكذا كان لدينا موقفنا المستقل من الصراع الدائر بين البلدين. عرضته بأمانة على مسامع الجواهرى. ولكنه بعصبية قطع ورقة صغيرة بحجم الكف وكتب عليها عدة أسطر، وطلب منى توصيلها إلى لطفى الخولى وهو يزمجر غاضبًا: قل للإخوان إننى استغرب ردهم. إننى واثق من أن الرئيس السادات يوافق على بقائى هنا! أريد أن أمضى بقية عمرى فى بلادكم. سوف أجمع شعرى وأكتب مذكراتى.

وقمت برأس مزدحم. شتى الانفعالات ومختلف الأفكار تجمعت فجأة. ورحت فى الصباح إلى لطفى وحكيت له كل شىء. قال لى مستغربًا كل هذه الحدة: إذا كان مصممًا، فعليه أن يكتب طلبًا. وقاطعنا تليفون من الجواهرى، لم يزد مضمونه عن كلمات الأمس. التفت إلىَّ لطفى وسألنى عن «الورقة» التى أعطانى إياها أبو فرات. كنت قد نسيتها. ونزل هو إلى مكتب الأستاذ هيكل، ونزلت أنا إلى الدكتور لويس عوض. حكيت له كل شىء فنظر إلىَّ متأملاً وهو يقول: حتى إذا أصر الجواهرى على البقاء - وأهلاً به فمصر بيته - فليتم ذلك دون ضجيج إعلامى يسىء إليه. للرجل مكانته وشيخوخته التى يجب احترامها. لا ينبغى بأية حال أن يكون لعبة أجهزة الإعلام ولا أن يكون طعمًا لشباك الصيد السياسى.

ثم جرت الأحداث بسرعة مخيفة. فى الخامسة من مساء هذا اليوم طلب منى لطفى الخولى أن أبلغ الجواهرى بموعد مهم بعد ساعة فى «الأهرام». وفى السادسة تمامًا كنت برفقة أبى فرأت فى مكتب الأستاذ هيكل، وكان لطفى بانتظارنا أيضًا. دخل الجواهرى حسب الموعد وبقيت خارجًا لبعض الوقت. ثم فاجأتنى السكرتيرة بأننى مدعو للدخول. كان هيكل يتذاكر مع الشاعر أبياتًا من إحدى قصائده. وكان يهديه نسخة من المجلد الذى يضم التاريخ المصور لعبد الناصر، وقد أصدرته الأهرام فى ذكراه الأولى. ثم التفت إلىَّ هيكل قائلاً: لو تكرمت تذهب مع شاعرنا الكبير غدًا فى تمام الساعة التاسعة إلى القصر الجمهورى فى عابدين. بانتظاركما الوزير محمد أحمد.

وفى الصباح كانت تنتظر الجواهرى مفاجأة لم تخطر له - ولى - على بال! حملت «الأهرام» فى صدر صفحتها الأولى خبرًا يقول ما معناه إن السيد رئيس الجمهورية وافق على منح الشاعر العراقى الكبير محمد الجواهرى حق الإقامة الدائمة فى مصر. لم أتناول إفطارى وتوجهت فورًا إلى فندق شبرد. كاد الجواهرى حين رآنى أن يلطم الوجه وهو يصرخ بكلمات مدغومة. فهمت منه أن الأمر كله كان يجب أن يظل سرًا وبمنأى عن شبهة اللجوء السياسى. اتصل به مراسل وكالة الأنباء العراقية يستفسر عن جلية الأمر. طلب منه الحضور إلى الفندق ظهرًا. وذهبت معه فورًا إلى موعده فى القصر الجمهورى. كان محمد أحمد وزير الدولة لشئون الرئاسة بانتظارنا. تبادلاً كلمات المجاملة، ثم التفت الوزير ناحيتى قائلاً: وخلال يومين على الأكثر فسوف ينتقل أستاذنا الجواهرى من الفندق. ثم سأله عن الحى الذى يرغب فى الإقامة به، فأجاب: جاردن سيتى. كان قد صاحب شابًا كويتيًا تعرف عليه فى به الفندق، يطلب العلم فى المعهد العالى التجارى، وكان يسكن فى هذا الحى وقد استضافه عدة مرات، فأعجبته السكنى هناك. وعند خروجنا من مكتب الوزير همس محمد أحمد فى أذنى بأن أتوجه إلى المكتب المجاور لأخذ مظروف مغلق باسم الجواهرى وأخبره أن مرتبًا شهريًا سيصله. واستمهلت أبا فرات لحظة فى الممشى وعدت إليه بالمظروف. فتحه أمامى فى التاكسى. كان به مائة جنيه. سألنى عما سيفعلون. قلت له سيعطونك مرتبًا شهريًا ويبدو أن هذا المبلغ عاجل للطوارئ. وبدأ الاضطراب يغشى عينيه والتوتر ينساب إلى صوته. سألنى كم فى

العادة يعطون لأمثاله؟ قلت له لا أعرف فهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أشهد فيها شيئًا كهذا. سألنى عن مرتب عبد الوهاب البياتى. قلت له إن البياتى يستعد للرحيل والعودة إلى بغداد. سألنى عما إذا كان سيقابل الرئيس، وبدأت أفقد الصبر وأنفض يدى من المسألة برمتها، فأنا لا أعرف ـ بالفعل ـ شيئًا على الإطلاق. سألنى عما إذا كان ممكنًا أن يقيد عضوًا بالمجمع اللغوى أو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. قلت له: أبو فرات، يجب أن تفهم جيدًا أننى لست مسئولاً وأن الموضوع بأكمله يسير فى مجرى لا أعلم بدايته ولا نهايته. أنت صديقى، وأرجو أن تعفينى من أى إحساس بالمسئولية عن شىء لم أشارك فى صنعه وإنما أتيح لى أن أشهد ـ بالصدفة وحدها ـ مظاهره الخارجية.. ولعلك تعلم أن عملى لا يسمح لى للأسف بوقت كافٍ لمصاحبتك رغم سرورى لذلك. ولا بد لجمعية الأدباء التى تستضيفك رسميًا حتى الآن أو رئاسة جمهورية التى ستستضيفك بعد ذلك من أن ترتب لك مرافقًا أو غير ذلك من أمور.

تجهم الجواهرى فى صمت. وكان مراسل وكالة الأنباء العراقية قد أزف موعده فاستأذنت. وفى «لا باس» رأيت الشاعرين عبد الوهاب البياتى، وحميد سعيد فلم أرو لهما شيئًا مما أعرف، ولكن خبر «الأهرام» كانت صدمته على وجهيهما واضحة. فى المساء كنا ثلاثة. أنا والبياتى وحميد سعيد فى بهو شبرد مع الجواهرى. راح البياتى يشرح له بشجاعة، ولكن فى أدب أن هذا القرار يتنافى مع أى منطق، وأن صياغة الخبر تعنى اللجوء السياسى بلا لف أو

دوران، وأنه ليست هناك أية مشكلات بينه ـ أى الجواهرى ـ وبين النظام فى بغداد تبرر هذا السلوك، بل أن العكس هو الصحيح فقد قامت السلطة من أجله بما لم تقم به أية سلطة لأى شاعر، وأنه لا يجوز استخدامه وقودًا فى حرب باردة. وكان حميد سعيد صامتًا طول الوقت. ولم يجب الجواهرى إلا بشتائم شخصية للبياتى، وأنه قد أفصح لمندوب الوكالة العراقية بكل شىء. ولم يكن «كل شىء» هذا إلا أنه مفاجأ بخبر «الاهرام» كأى قارئ آخر وإن إقامته فى مصر محدودة يريد بها أن يلغى اسمه من قوائم الممنوعين نهائيًا، مع تحياته إلى العراق حكومة وشعبًا.

.. وانتقل الجواهرى إلى شقة فاخرة بجاردن سيتى! وأرسل إلى السيدة زوجته فى بغداد يشرح لها ضرورة بقائه فى القاهرة. وبقيت مهمته أن ينفى أمام زواره فكرة اللجوء، وأنه سيعين قريبًا فى المجلس الأعلى للفنون أو المجمع اللغوى، وأخذ ينتظر مقابلة الرئيس التى لم يعده بها أحد. وانتهى «المولد» فى الصحف التى ظلت تطارده أسبوعًا كاملاً منذ نهايات سبتمبر ـ أيلول إلى بدايات أكتوبر ـ تشرين الأول. صمتت. ولم يعد يتصل به أحد. التقدميون وجدوه يوثق ارتباطاته بأعدائهم، فابتعدوا متسائلين. الرجعيون كانوا يضحكون فى أكمامهم شامتين. حوريات الجنة اللاتى تصورهن فى خياله أنهن سيقعن فى غرامه، تأخرن فى الحضور، ثم تخلفن دون تحديد الأسباب.

وفجأة حضر ابنه الدكتور فلاح ـ أم نجاح، لست أذكر اسمه

تمامًا ـ من بغداد حيث يعمل طبيبًا. وأشهد أن هذا الشاب الوطنى قد وبخ والده الشيخ أمامى توبيخًا حادًا؛ تارة لأن الزوجة والأولاد لا يطيقون بعده وقد آن الأوان ليستريح، وتارة أخرى لأن الناس البسطاء فى العراق صدموا بهذا القرار غير المبرر. وأكد له أن السلطة لم ولن تتخذ ضده أى شىء رغم المفاجأة. وعاد فلاح ـ أو نجاح؟ ـ بخفى حنين!

ولكن «الوحدة» راحت تنسج خيوط العنكبوت حول الرجل العجوز. لم يعد يتصل به أحد، لا يوسف السباعى ولا صالح جودت ولا الآخرون. وإنما بقى اتصاله الوحيد ـ مقطوعًا ـ بمكتب اللاجئين السياسيين فى رئاسة الجمهورية. ذلك أنه فوجئ آخر الشهر بأن أحدًا لم يسأل، وأن عليه أن يدفع ثمن الكهرباء، وصاحب المنزل الأرستقراطى يستفسر عمن سيدفع الإيجار. ويبدو أن البيروقراطية شاركت فى صنع المهزلة، فقد احتاج الأمر لأن يطلب منى الجواهرى أن أكلم هيكل أو لطفى فى الموضوع. كلمت لطفى. وصله «أحدهم» يحمل مظروفًا جديدًا وكلمات اعتذار ووعد بأن المشكلة ستنتهى خلال أيام.

قبل انتهاء الشهر الثانى لم تكن المشكلة قد انتهت! وأحس الجواهرى بالضياع. وبدورى لم أفهم شيئًا، أين بدأ الخيط، وكيف تعقد؟ هل بدأ فى خلوته مع السباعى وجودت والوردانى أم فى مكتب هيكل، أم فيهما معًا؟ هل كانت «نزوة» مزاجية طارئة لقيت أذنًا صاغية واستغلالاً سياسيًا موقوتًا، ثم «احترقت الورقة» فلم تعد

لها قيمة تستحق العناء؟ مَنْ الذى وعد، ومَنْ الذى أخلف؟ أم أن القصة بدأت فى مكتب السباعى على نحو ما، ثم بدأت من جديد فى مكتب هيكل على نحو آخر، فختلفت البداية، وكانت النهاية واحدة؟.

لا أدرى، فأنى لم أر ولم أسمع ولم أحضر «اللحظات الحاسمة» فى الموضوع، وقد دارت فى مكتبين مغلقين أحدهما بدار الأدباء والآخر «الأهرام». كل ما أدريه أن شيئًا حدث يشبه «الشهوة» فى صعودها إلى الذروة وهبوطها إلى السفح، فى علاقة الجواهرى بالنظام المصرى إبان شتاء ١٩٧١. واللافت للنظر أن ما بين تأجج الشهوة من الجانبين وانطفائها المباغت، تم بسرعة مذهلة ولوقت بالغ القصر.

ثم...

جاءنى أبو فرات ذات صباح بقلب كسير يدعو للأسف والحزن، يسألنى عن كيفية الحصول على بطاقة سفر إلى براغ. أدهشنى أن بطاقة الدعوة كان للذهاب وحده وليست للإياب. اتصلت بيوسف السباعى فأمر عصام الحينى بتدبير التذكرة واستوقفنى متسائلاً: لماذا؟ التقط الجواهرى سماعة التليفون ليقول: سوف أنهى متعلقاتى فى براغ وأعود. ورفع السماعة ثانية ليقول العبارة ذاتها لمن يتصلون به من الرئاسة. ورفعها ثالثة ليرددها على مسامع لطفى الخولى.

وحين سألنى لطفى فى اليوم التالى - مبتسمًا - ما الخبر؟

أجبته: صدق تقديرك للرجل. علق: وقد يهاجم مصر غداً فى بيروت. هذا هو الجواهرى.

* * *

نعم، هذا هو الجواهرى.

فحين جاءنى معين بسيسو منذ قرابة شهرين يحمل لى صورته وهو يتقلد «وسام الكفاية الفكرية» فى البلاط المغربى، لم أفاجأ لكنى حزنت، كما لم أحزن عندما عرفت أن محمود حسن إسماعيل فى مؤتمر الأدباء العرب بتونس أنشد قصيدة للرئيس بورقيبة وكانت «مذبحة المثقفين المصريين» لا تزال دامية.

حزنت وكتبت كيف يسمح الزمن للجواهرى بأن يأخذ وساماً، والشاعر المغربى المناضل عبد اللطيف اللعبى فى زنزانته محكوم بعشر سنوات.

وحين تلقيت نبأ الهدية الملكية المغربية يوم ٢٤ سبتمبر - أيلول الماضى، كان الحزن نفسه قد تبدد.. فهذا هو الجواهرى إذن «شخصية لم يكن الشعر فى حياتها أهم الأشياء، كما قد يتصور البعض، ولا كان الشعب، ولا كانت الثورة. وإنما كانت (حياة) الجواهرى نفسها وما زالت أغلى الكنوز التى اقتناها و «عاشها» فى هذه الدنيا» كما كتبت عنه منذ أسابيع.

ولكن، ماذا ينتفع الإنسان حقًا، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟

تلك هى «العبرة» التى يمكن أن تدلنا عليها مأساة الجواهرى، بعد أن يذهب.. ويبقى الشعر.

مؤامرة ١٩٦٥ نجحت فى ١٩٧٥

حين خرجت من السجن فى منتصف عام ١٩٦٢ وجدتنى بالطبع مفصولاً من عملى الرسمى فى التعليم، أما الصحافة التى كنت قد امتهنتها قبل ذلك التاريخ بقرابة ست سنوات، فإنها تلكأت فى استقبالى بأسلوب مهذب يشى بأن «جهة ما» تعترض على كتاباتى أن ترى النور. وإذا كانت أسرتى قد استطاعت أن تتحمل فترة غيابى وراء الأسوار، فإن الوضع لم يعد قابلاً للصبر بعد الخروج.

وصرت أكتب مقالاً شهريًا لمجلة «الآداب» فكان الدكتور سهيل إدريس كريمًا معى مقدرًا للظرف الخاص الذى أمر فيه. وكنت قد أنهيت ـ قبل وأثناء وغداة الاعتقال ـ كتابين أحدهما عن المفكر الراحل سلامه موسى، والآخر عن «أزمة الجنس فى القصة العربية» فأخذت مكتبة الخانجى الكتاب الأول، ونشرت «دار الآداب» الكتاب الثانى. ثم فوجئت بمجلة «الكاتب» وكان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت أحمد حمروش ـ ولم أكن قد تعرفت به ـ تتصل بى فى شخص سكرتير تحريرها رأفت الخياط ـ ولم أكن

تعرفت به أيضًا ـ لتطلب منى أن أكتب فيها بصفة منتظمة. كذلك فقد دعانى الأساتذة يحيى حقى، وأنور المعداوى، وفؤاد دوارة للإسهام فى تحرير «المجلة».

وهكذا فتحت لى بعض الأذرع الحانية والقلوب الودودة فى نهاية صيف ١٩٦٢ إلى أن دعانى الدكتور لويس عوض، ولطفى الخولى لتحرير عمود نقدى بصفحة الرأى فى «الأهرام» فشعرت أن أزمتى الخاصة فى سبيلها للانفراج وإننى سوف استأنف عملى الصحفى الطبيعى فى القريب. ذلك أن العمل فى المجلات الثقافية الشهرية المتخصصة لم تكن عملاً صحفيًا بالمعنى الحقيقى للمهنة، وإنما كانت مأوى من البطالة ومصدرًا للحد الأدنى من الرزق وفرصة لنشر بعض الفصول من مؤلفاتى التى يصعب نشرها فى الصحافة اليومية أو الأسبوعية. وظللت طيلة عام ١٩٦٣ أراوح بين العمود الأسبوعى فى «الأهرام» والمقالين الشهريين فى «الكاتب» و «المجلة». وقبيل عام ١٩٦٤ بقليل ـ وكان الإفراج عن بقية المعتقلين قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ ـ اتصل بى الدكتور محمد أحمد خلف الله الذى عين حديثًا مديرًا عامًا للمجلات بوزارة الثقافة.

وكان اتصاله بى حدثًا فى حياتى.. ذلك إننى قرأت للرجل كتابه الشجاع «الفن القصصى فى القرآن الكريم»، وكان أستاذه الشيخ أمين الخولى قد حدثنى عنه كثيرًا، خاصة حول «طرده» من الجامعة بعد الحصول على الدكتوراه، عقابًا على أفكاره الجريئة. اتصل بى خلف الله ليقول إن المطاف انتهى به إلى وزارة الثقافة، وأنهم ينوون

إصدار عدة مجلات ثقافية أسبوعية وشهرية بالإضافة إلى المجلات القائمة، وأنه اختارنى للتعاون معه، بل إنه يبلغنى الموافقة على تعيينى مديرًا لتحرير مجلة «الشعر» المقترح صدورها أول عام ١٩٦٤ إلى جانب عملى الاستشارى فى الهيئة العامة المشرفة على صدور المجلات.

ووقع النبأ علىَّ كالصاعقة..

فالحق إننى لا أعرف الرجل على الصعيد الشخصى، أنه فى مخيلتى مفكر شجاع ينتمى إلى تراث «الإصلاح الدينى» فى مصر من الإمام محمد عبده إلى الشيخ على عبد الرازق إلى خالد محمد خالد، وأنه إلى جانب ذلك مفكر قومى عربى ينتمى إلى الأجواء الأيديولوجية لحزب البعث. من هنا - تمامًا - بدأت دهشتى فاختياره بالذات مفاجأة. ثم كان اختياره لى وللدكتور عبد القادر القط مدعاة لأن تتسع دائرة المفاجأة لتصبح شيئًا كالذهول.

لماذا؟

أجبت بينى وبين نفسى أن على رأس وزارة الثقافة رجل ضد الثقافة يدعى عبد القادر حاتم، فما الذى حدث حتى يفتح صدره بكل هذه الرحابة للمثقفين؟ وقلت: ربما كان ذلك كله مقترنًا بحالة الانفراج التى توشك البلاد على الدخول فيها، وليس الرجل أكثر من أداة تنفيذ لرغبة أعلى. ولكن قلبى - رغم ذلك - بقى متوجسًا شرًا.

على أية حال فقد بدأت عملى قبيل عام ١٩٦٤ بقليل. كنت التقى يوميًا بالدكتور عبد القادر القط الذى عين رئيسًا لتحرير مجلة

«الشعر» بينما اضطلعت بمهام إدارة التحرير إلى جانب باب عن «الثقافة العالمية» كلفنى بإعداده الدكتور خلف الله لمجلة «الثقافة» الأسبوعية. وكانت الخطة الجديدة هى إصدار مجلتين متخصصتين شهريتين للقصة والشعر، ومجلتين أسبوعيتين هما: «الرسالة»، و «الثقافة».

وكانت المفاجأة الأولى هى إسناد رئاسة تحرير المجلتين الأسبوعيتين إلى أحمد حسن الزيات ومحمد فريد أبو حديد؛ لأنهما كانا يملكان المجلتين قبل الثورة. وكانت المفاجأة الثانية هى إسناد رئاسة تحرير مجلة «القصة» إلى ثروت أباظة. وبقيت «المجلة» على حالها بأيدى يحيى حقى، وأنور المعداوى، وفؤاد دوارة. كذلك كان الإعداد على قدم وساق لإصدار «الطليعة» عن مؤسسة «الأهرام» ولتغيير مجلة «الكاتب» إلى منبر سياسى برئاسة أحمد عباس صالح. وكانت أبواب السجون والمعتقلات تستعد للإفراج عن اليساريين والديموقراطيين.

.هكذا بدا الأمر «انفتاحًا» على مختلف التيارات و «توازنًا» بين أشكال التعبير عنها.. فالمحافظون لهم منابرهم، والتقدميون لهم منابرهم، وحرية الفكر والتعبير تصونها وتكفلها روح الانفراج الجديد.

وسألنى الدكتور عبد القادر القط: ماذا سيكون معيارنا فى نشر الشعر والأبحاث النقدية؟ وقلت: جودة المستوى بغض النظر عن الاتجاه، أليست هذه هى الديموقراطية بمعناها الليبرالى؟ وعلّق

الرجل: نعم. وصمت قليلاً كمن يفكر ثم قال: ولكن هذا لا يمنع التوازن بين ما ننشره من القديم والجديد. وصمت مرة أخرى ثم أردف: أنهم أرسلوا لنا الأستاذ طاهر الجبلاوى ليساعدنا فى أعمال السكرتارية والتصحيح. ولم يكن الخبر جديداً، فقد أنبأنى الدكتور خلف الله به قائلاً إن الأستاذ العقاد يوصى بالرجل، ولم أجد له عملاً إلا فى مجلة «الشعر».. فقلت له: وماذا فى ذلك؟ إنه رجل طيب كالدراويش، وهو عضو بلجنة الشعر فى المجلس الأعلى، ويستحق المساعدة، وهو متمكن من تصحيح العروض، وفى جميع الأحوال هو مفيد، فإذا لم يكن، فإنه ليس ضاراً.

وصدر العدد الأول من مجلة «الشعر» وبقية المجلات القديمة الجديدة فى يناير ـ كانون الثانى ١٩٦٤.

ولم يتحقق للعدد الأول من «الشعر» المستوى الذى كنا نحلم به.. لأن الشعر العمودى كان بالغ الرداءة، والشعر الجديد كان دون المتوسط. والأبحاث وحدها ـ كانت على درجة من الجودة. ولم يكن ثمة بد من دعم الجيد وطرد الردىء، فأصبح الشعر الحديث ونقده يحتلان الجانب الأكبر من الحيز، وإختل التوازن الشكلى بين المدرستين.

ثم..

خرج اليساريون من السجون فى إبريل ومايو ـ نيسان وأيار ـ عام ١٩٦٤ وبدأ الكتاب منهم يعودون إلى صحفهم أو يحاولون ذلك، ومَنْ لم يكن منهم مقيداً فى إحدى الصحف راح يبحث عن عمل.. وكان

الدكتور حاتم يستقبل بعضهم - بناء على التعليمات - بالترحاب الشديد، ويفتح لهم مكتبته مشيرًا إلى مؤلفات ماركس وإنجلز ولينين قائلاً: انظروا.. هذا أنا، وتلك ثقافتى. أنهم فى الاتحاد السوفييتى يتهموننى بالتطرف اليسارى حين أناقشهم واستشهد قبلهم بلينين. وصدقونى، المباحث هنا قدمت للرئيس تقريرًا تتهمنى فيه بالشيوعية. على أية حال، إنها ليست تهمة. أهلاً بكم.

كان بعضهم يضحك فى سره، والبعض الآخر لم يكتم الضحك، والبعض الثالث كان مشدوهًا لما يسمع. هكذا «الجو» إذن! فقد كانت الأسطوانة الحاتمية تدار بمجرد دخول يسارى إلى مكتبه، حتى إن أحدهم راح يمزح معه قائلاً إنه يشاهد فى المكتبة بعض الكتب الماركسية النادرة ويريد استعارتها. وحين خرج قال لأصدقائه: إنها الكتب نفسها التى صادرتها المباحث من منزلى!

المهم أن جو الانفتاح بدا يشيع فى المؤسسات الصحفية والثقافية، وكان لا بد أن ينتقل بالعدوى إلى إدارة المجلات بوزارة الثقافة.. هكذا قلت للسيد المدير العام - الدكتور خلف الله - وأنا أسرد عليه الأسماء التى أرغب فى التعاون معها فى مجلة «الشعر» وغيرها من المجلات.

وعادت الغالبية العظمى من الأقلام اليسارية إلى الصحافة المصرية. وبدأت فى مجلات وزارة الثقافة تظهر بعض الأسماء التى غابت عن النشر سنوات طويلة.. ويتصادف - أو لا يتصادف - أن المواهب اليسارية فى الترجمة والنقد والبحث كانت أكثر من غيرها

كفاءة.. وقد إتضح ذلك ـ على الفور ـ على صفحات مجلة «الشعر»، أحيانًا «القصة»، وأحيانًا «الثقافة» ومعظم الأحيان فى «المجلة». ويتصادف ـ أو لا يتصادف ـ أن المواهب السلفية كانت فقيرة وقليلة وعقيمة، حتى أن مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» استعانتا بالموظفين الإداريين فى ديوان الوزارة ليسودوا الصفحات على أى نحو كان.

وظل الموقف هكذا تسعة أشهر كاملة.. كانت المخازن خلالها تتكدس بأعداد «الرسالة»، بينما «الشعر» تنفد من الأسواق حال ظهورها..

وجاءنى الدكتور القط ذات يوم بأدب جم ومحبة غامرة ـ إذ تربطنى بالرجل صداقة قوية بالإضافة إلى علاقة التلميذ بأستاذه فقد علمنى الكثير ـ وقال لى: ألا يمكن التقليل من الأسماء اليسارية، وكذلك من الشعراء الجدد؟

و «لعب الفار فى عبِّى» كما يقولون. ماذا حدث؟ لقد كان الأستاذ طاهر الجبلاوى يهمس لى بين الحين والآخر بهذا المعنى ملفوفًا فى ورق السلفان وبكثير من اللف والدوران. ذلك أن الرجل ـ بالفعل ـ درويش طيب وقد نمت بيننا علاقة الألف والصداقة، وهو يريد أن يصارحنى دون أن يصدمنى بما يدور فى كواليس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى. وكنت أظن الأمر ثرثرة مقاهى وغيرة الماضى من المستقبل. ولكن لهجة الدكتور القط تحمل فى نغماتها حزنًا دفينًا كشبح النذير.

وفجأة، وفى وقت واحد، وقعت حادثتان خطيرتان.

بدأت الحادثة الأولى باجتماع طارئ للجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، أصدرت على أثره بيانًا يقول:

- إن البلاد عرفت فى الآونة الأخيرة موجة من الإلحاد والوثنية فى الشعر، ذلك أن الذين يسمون أنفسهم بالشعراء «الجدد» ليسوا إلا حراب مسمومة موجهة إلى صدر الإسلام، فهم يسمحون لأنفسهم باستخدام إشارات ورموز مستوحاة من ديانات غير موحدة بالله.

- إن هذه الموجة ليست معادية للإسلام فحسب، بل هى ضد العروبة أيضًا، لأنها تهدم قواعد اللغة والعروض التى ورثناها عن الآباء والأجداد وأجداد الأجداد، وهم يجمحون فى العودة بالمخيلة إلى أمجاد إقليمية فهم شعوبيون جدد، لا يأنفون من استخدام العامية أحيانًا وكسر عنق البلاغة العربية فى أغلب الأحيان. أن اللغة هى تراث الأمة وأخطر مقوماتها. وهؤلاء الذين ينتحلون صفة «الشعراء» قسرًا هم أعدى أعداء لغتنا وأمتنا.

- أنهم «قرامزة» لا علاقة لهم بالتراب المقدس لهذا الوطن، لأنهم يمجدون بطولات حمراء فى بلاد غيرنا، ولأنهم يحضون على الحرب بين الطبقات ويحرضون سائر الناس على البغى والمنكر وانعدام الأخلاق السوية التى ورثناها عن الأقدمين.

- أن لجنة الشعر بالمجلس الأعلى وقد تأسست لصون تراث هذه الأمة ولغتها وشعرها من حقها أن تشرف على وسائل النشر كافة،

والإذاعة التى تصل عبرها هذه «السموم» إلى المواطنين، وهى الأولى بالإشراف على مجلة «الشعر» بالذات، لأنها تصدر عن دولة لها تقاليدها وقيمها لا عن بضعة أفراد لهم مطلق الحرية فى التعبير عن أنفسهم بوسائلهم الخاصة.

هذا ـ على وجه التقريب ـ موجز البيان الذى هبط كالصاعقة على رؤوس الجميع. على رؤوس المواطنين أولاً، ثم على رؤوس الشعراء، ثم رؤوس المشرفين على المجلات الثقافية.

وكما تصورت بادئ الأمر أن ثرثرة الأستاذ الجبلاوى لا تعدو كونها غيرة الماضى من المستقبل وأن تحذير الدكتور القط من قبيل المبالغة والحساسية المرهفة التى يتمتع بها لدرجة التشاؤم، فإننى ـ رغم المفاجأة ـ قدرت الأمر على أنه مجرد تحدٍّ من جانب عزيز أباظة، وصالح جودت، ومحمود غنيم، والعوضى الوكيل.

ولكنى كنت على درجة هائلة من حسن النية والسذاجة. ذلك أن لجنة الشعر تضم بين صفوفها السيدة ملك عبد العزيز، والأستاذ صلاح عبد الصبور. ولجنة الشعر تعرف أحمد عبد المعطى حجازى ومحمد عفيفى مطر ومحمد إبراهيم أبو سنة فى مصر وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتى فى العراق، ومحمد الفيتورى وتاج السر الحسن وجيلى عبد الرحمن فى السودان، ونزار قبانى وعلى الجندى وشوقى بغدادى وعلى كنعان ومحمد عمران وممدوح عدوان فى سوريا، وغيرهم من الشعراء الحديثين ـ روادًا وشبابًا ـ فى جميع أنحاء الوطن العربى. ويعلم الناس قبل لجنة

الشعر أن هؤلاء الشعراء من الطلائع المتقدمة المناضلة عن الأمة العربية، وأنهم ـ جميعًا ـ مسلمون، وأنهم ـ جميعًا ـ ضد الاستعمار. وأن قضية الشعر الجديد ـ على صعيد الشكل والمضمون ـ هى قضية فكرية واجتماعية تختلف بها هذه الطلائع عن الاكثرية الساحقة من التقليديين، لأسباب يتصل بعضها بروح العصر وصراع الأجيال وتباين التجربة والثقافة ويتصل بعضها الآخر بطبيعة المرحلة الوطنية والاجتماعية التى يمر فيها الوطن.

ولكنى كنت ساذجًا. ولم أكن وحدى، بل إن غالبية المثقفين الوطنيين الذين ذهبوا إلى الدكتور حاتم محتجين، والذين راحوا يكتبون فى الصحف والمجلات مدافعين، لا يقلون عنى سذاجة. ذلك أن حوارًا ـ حادًا أو هادئًا ـ حول الشعر القديم والجديد لا يثير أحدًا، فالصراع دائر حول القضية منذ بداية الخمسينيات. ولكن لهجة البيان وصياغته ـ التى قام بها الدكتور زكى نجيب محمود ـ كان يجب أن تنبهنا إلى أن شيئًا خطيرًا، لا علاقة له بالشعر ـ وأن اتخذه مشجبًا ـ على وشك الحدوث.

وفى غمرة الصراع الفكرى حول الشعر الذى قدم فيه عبد القادر القط وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازى مساجلات بارزة، نادانى الدكتور خلف الله بوجه متجهم على غير العادة وقال لى فى إيجاز: إننى آسف لأن أبلغك قرارًا مؤلمًا هو أن الوزارة قد استغنت عن التعاون معك فى مجلة «الشعر» وبقية المجلات. ولأنك موظف بالمكافأة الثابتة، ولست موظفًا على درجة مالية، فقد رتبنا لك الأمور المادية بما يرضيك.

وكان هذا الترتيب هو إعطائى مرتب شهر إضافيًا. وقد استغربت لأن المدير العام ظل مستغرقًا فى الجانب البيروقراطى من الموضوع، بينما ظللت أنا ساهمًا فى ما يجرى حولى بعين جديدة.. كمن يفيق من نوم عميق رحت أفكر وأرقب بعين مفتوحة.. فبعد هذا اللقاء مباشرة توجه لتسلم مكانى فى مجلة «الشعر» الأستاذان محمود حسن إسماعيل، وعبده بدوى. وتم استبعاد الأسماء ذات الرنين التقدمى فى بقية المجلات، وانقلبت مجلة «الشعر» كالبهلوان وأصبحت بوقًا لشلة لجنة الشعر.

وبعد أسبوع واحد من إقالتى كان الدكتور خلف الله نفسه يترك موقعه فى إدارة المجلات ليذهب ـ بلا عمل ـ إلى ما يسمى مجازًا بإدارة التخطيط..

ولم أمت جوعًا، فقد سارع يحيى حقى وأنور المعداوى إلى لجنة التفرغ، وحصلت منها على عام كامل بمرتب شهرى كافٍ. ولم يكن العام قد انتهى حين عينت فى مؤسسة «الأهرام» ناقدًا أدبيًا لمجلة «الطليعة».

وليس ذلك كله مهمًا. وإنما كان المهم حقًا هو ما جرى وما يجرى.

ورحت بذاكرتى أرصد «علامات» الشهور القليلة الماضية. لم يكن الإفراج عن زملائى عملاً سهلاً. كان صراعًا ضاريًا فى قمة السلطة. وتأكد لى ذلك بما لا يدع مجالاً للشك حين صارحنا عبد الناصر عام ١٩٦٩ عند اجتماعه بأسرة «الطليعة» ـ وقد حضر

الاجتماع أنور السادات ومحمد حسنين هيكل ـ أنه لولاه لكنا لا نزال فى الصحراء. لم يكن إفراج عام ١٩٦٤ إجماعًا إذن، وإنما كان صراعًا عنيفًا تكلل بالدم على باب الخروج.. فقد افتعلت إدارة السجن معركة مع المعتقلين قبيل ذهابهم راح ضحيتها المناضل الشهيد لويس إسحق غير من جرحوا. هكذا إلى اللحظة الأخيرة كان الصراع ملتهبًا، ولم يكن قد انتهى بالطبع بالخروج. مئات من العمال لم يعودوا إلى أعمالهم، ومئات من الموظفين الصغار تلكأت إجراءات إعادتهم، والقلائل من ذوى الكفاءات العالية بقوا شهورًا فى بيوتهم، ورجال الإعلام عادوا محاصرين ماديًا ومعنويًا.

كان قرار الانفتاح على اليسار قرارًا علويًا. أما قنوات التنفيذ فكانت مسدودة بعشرات المتناقضات. كان اليمين ـ بإجراءات ٦٢ ـ قد تقلص نفوذه على الصعيد الاقتصادى، ولكن غياب الاشتراكيين فى السجون أضاف إلى نفوذه رصيدًا فى مراكز الإدارة والإعلام. وكان بقاء حاتم على قمة الإعلام والثقافة إبقاء لذات الأجهزة المعادية لليسار حتى وإن رحبت به ملقا لصاحب الأمر. إن الدكتور حاتم هو رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وبيان لجنة الشعر وما ينفذ من إجراءات فى إدارة المجلات الثقافية، ليس بعيدًا عن إشرافه المباشر.

وهنا استدرت ممعنًا النظر فى الحادثة الثانية التى وقعت فى الوقت نفسه. كانت مجلة «الرسالة» قد بدأت سلسلة من المقالات بتوقيع المحقق اللغوى المعروف محمود شاكر يرد بها على سلسلة من

المقالات كتبها الدكتور لويس عوض فى «الأهرام». كان لويس عوض راح يقارن صور «العالم الآخر» فى الآداب المختلفة، وركز البحث فى خاتمة الرحلة على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى والكوميديا الإلهية لدانتى. وقد أفاض الرجل فى إبراز الخيال المبدع والإضافات الخلاقة التى تميز بها عمل المعرى، وإن لم يستبعد التأثير والتأثر المتبادلين فى الثقافات القديمة. ويستحيل على أى قارئ منصف لأطروحة الدكتور لويس عوض أن يستخلص ترجيحه لأن يكون المعرى قد سرق من الآداب اليونانية واللاتينية القديمة. ومع ذلك فأى عمل علمى خاصة فى مجالات العلوم الإنسانية وبصفة أخص فى ميدان الأدب المقارن، معرض للنقد والاختلاف والحوار.

وقد بدت مقالات محمود شاكر فى الرسالة لأول وهلة وكأنها رد علمى يحترم الرأى الآخر. ولكنها سرعان ما تحولت عن هذا المنطلق، إلى منزلقات طائفية ذميمة، استخدم فيها صاحبها كافة معاجم استعداء السلطة والاتهام بالشعوبية ومعاداة الإسلام إلى آخر القائمة. وقد انتقل بمقالاته من الرد على أطروحة «الغفران» إلى التعليق على كل ما كتبه لويس عوض فى حياته.

تحول الرد إلى حملة أسبوعية استهلكت مئات الصفحات، تدخل فيها إلى جانب محمود شاكر مجموعة من الموظفين الصغار، كما أنها لم تعد وقفًا على لويس عوض وإنما على «تيار قبطى فى الثقافة المصرية»! وكان التوقيت مذهلاً، فالحملة على لويس عوض

والحملة على مجلة «الشعر»، أقبلتا معًا وكأنهما بتنسيق خفى..

ومن الطبيعى بعد أن «تطهرت» إدارة المجلات من الأقلام اليسارية، أن ينفسح المجال واسعًا أمام هذه النغمة الغريبة على التقاليد الوطنية المصرية.. عزفت لجنة الشعر على الوتر الفنى فى الشعر الحديث وقالت إن رموز الصليب والتثليث والمسيح وبروميثيوس وسيزيف وأوزوريس، هى رموز مسيحية وثنية تعادى العروبة والإسلام، وأن الإنقلاب الموسيقى على الخليل بن أحمد الفراهيدى هو ثورة مضادة للعروبة والإسلام. كذلك عزفت مجلة «الرسالة» على الوتر الفكرى فى أعمال سلامة موسى ولويس عوض وغيرهما، وقالت إن التراث هو الإسلام وحده وغيره كفر، بل قال محمود شاكر وجلال كشك وغيرهما أن القومية العربية ذاتها مؤامرة استعمارية ضد الوحدة الإسلامية وأن الدولة العثمانية كانت السلطة القريبة من الله وكتابه الكريم.

وتحولت «الرسالة» إلى ما يشبه جريدة «الدعوة» التى كان يصدرها الإخوان المسلمون، إلى ما يشبه المنشورات الداعية إلى قلب نظام الحكم. وانهالت البرقيات على رئاسة الجمهورية وجريدة «الأهرام» تطالب بإقصاء لويس عوض وتطهير الصحافة كلها من «الكفار الملحدين الحمر» جنبًا إلى جنب مع المناداة بالاشتراكية الإسلامية. وراح الشيخ محمد الغزالى يخطب فى المساجد ضد رسام الكاريكاتير صلاح جاهين الذى كان متحمسًا لعلمنة الأزهر وتطوير قانون الأحوال الشخصية. وخطب شيخ آخر أثناء زيارة

خروشوف داعيًا إلى «الجهاد» و «الشهادة» ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد.

ولأن الصراع كان حادًا على المستويات كافة حتى قمة السلطة فقد حدث شىء غريب فى الوقت الذى بدت فيه بوادر الإنفراج، إذ استطاع حلمى سلام - رئيس تحرير «الجمهورية» حينذاك - بوحى من المشير عامر أن ينقل قرابة أربعين صحفيًا إلى مؤسسات الأخشاب والأسماك والحلوى والأحذية، كان من بينهم كتاب مرموقون كعبد الرحمن الشرقاوى، والخميسى، وأحمد عباس صالح وغيرهم..

وفى هذا المناخ بالضبط - عام ١٩٦٥ - قامت المنظمات الشيوعية بحل نفسها. كان الأمر يبدو - فوق السطح - مزيدًا من الالتفاف حول قيادة عبد الناصر لتوحيد الجهد والإسراع فى طريق التحول السلمى نحو الاشتراكية. ولكنه - تحت السطح كان يشكل مفارقة تاريخية مؤسية.. إذ كان اليمين المتطرف يجمع صفوفه تحت الأرض وينظم تشكيلاته ويستعد لوثبة مسلحة ضد اليسار والنظام..

وهكذا فجأة، بدت البيانات الرجعية ومقالات الفتنة الطائفية وكأن لا علاقة لها بلويس عوض ولا بالشعراء الجدد ولا بمجلة الشعر.. كانت تمهيدًا سافرًا لمؤامرة صيف ٦٥ التى استهدفت الإطاحة بجمال عبد الناصر. وكانت ضمن المضبوطات فى حيازة الإخوان المسلمين قوائم بأسماء الكتّاب الوطنيين والتقدميين المطلوب اغتيالهم.

والمفارقة التى عنيتها هى أن الإجراءات الوطنية التى اتخذها عبد الناصر كانت تحتاج إلى دعم اليسار بتوحيد صفوفه ومنظماته، لا بحلها.. فى مواجهة اليمين القوى المنظم. ذلك أن انصهار بعض المناضلين فى الاتحاد الاشتراكى أدى إلى ذوبانهم فى بحر مضطرم الأمواج لا علاقة له بالنضال من أجل الاشتراكية. بينما أصبح الشارع الشعبى مفتوحًا على مصراعيه لتنظيمات اليمين. بالرضافة إلى أن حل التنظيمات الشيوعية لم يساعد الحكم الناصرى على حل التناقض الفاجع داخله بين المضمون الوطنى والأسلوب السياسى غير الديموقراطى. لقد أقبل حل المنظمات اليسارية ليكرس - رغم أنف النوايا - هذا التناقض وليمنحه شرعية.

المهم أن اليسار الذى لم يتصور قط أن معركة الشعر الجديد ومعركة شاكر - عوض، تتجاوز الثقافة والأفراد، لم تسمح له الأجهزة بالرد على الأطروحة الطائفية المتفجرة فى مجلات وزارة الثقافة.

وحين أسفرت الفتنة عن وجهها المسلح تصدت لها أجهزة الأمن بالسجون والمعتقلات والمشانق. أما «الفكر» فقد ظل خبىء الصدور وحبيس القلوب والعقول. وأما الصراع، فقد ظل مستورًا بأغلفة براقة من الشعارات.

واكتفى الرئيس عبد الناصر بإهداء «وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى» إلى الدكتور لويس عوض..

واكتفى شعراوى جمعة ـ عام ١٩٦٦ ـ بأن يكون أول عمل له فى وزارة الداخلية، هو القبض على جيلين من مثقفى اليسار..

وحين دخلت معتقل طرة فى التاسع من أكتوبر ـ تشرين الأول عام ١٩٦٦ كان المشهد أمامى يدعو إلى الجنون: يقيم معى فى عنبر واحد فوزى جرجس ورؤوف نظمى وإبراهيم فتحى وعادل أمين وعلى الشوباشى ومحمود عزمى وأحمد فرج ومنصور زكى وعبد الرحمن الأبنودى وسيد حجاب وسيد خميس وصبرى حافظ ومحمود حشمت وجمال الغيطانى، وغيرهم عشرات من الشيوخ والكهول والشباب اليسارى (وكانوا قد أفرجوا عن لطفى الخولى ومحمد الخفيف وإبراهيم سعد الدين وأمين عز الدين بعد يوم أو يومين من اعتقالهم). وفى العنبر المقابل أرى حافظ شيحا وياسين سراج الدين وسيف الغزالى من الوفديين الذين أمسكوهم فى جنازة مصطفى النحاس. وفى العنابر المجاورة أرى الشيخ محمود شاكر ومئات من الإخوان المسلمين.

بقى بعضنا سبعين يومًا بين طرة والقلعة، وبقى البعض الآخر حتى وقعت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧.

* * *

على الرغم من الهزيمة «البوليسية» لليمين، فإن القوى الرجعية فى الداخل والقوى الاستعمارية فى الخارج استطاعت أن توقع بالنظام هزيمة عسكرية وأخرى سياسية. ولم تكن «القوى الرجعية فى الداخل» تعنى الإخوان المسلمين وحدهم أو بقايا الطبقات

القديمة وحدها، وإنما كان العمود الفقرى لسلطة النظام قد استضاف من صلبه ومن نخاعه الجارى فى العظام عدة «فقرات» سميت تجاوزًا بالطبقة الجديدة. إنها الطبقة التى تنبه عبد الناصر إلى خطورتها وأخذ يضرب بعض أجنحتها العسكرية والأمنية فى ما يسمى بسقوط دولة المخابرات. لذلك، فإن وقف مجلات وزارة الثقافة وإقالة الدكتور حاتم وحبس الإخوان المسلمين ـ كل ذلك عام ١٩٦٥ ـ لم يمنع الهزيمة من الحدوث. ذلك أن التناقض المأساوى كان فادحًا، بين مجموع التشريعات والإجراءات والقرارات التى يصدرها عبد الناصر من جانب، والتركيب الاجتماعى للسلطة وصيغة الاتحاد الاشتراكى من جانب آخر. وقد ظل هذا التناقض قائمًا بعد ١٩٦٥ وبعد ١٩٦٧، بل إن الهزيمة هيأت له ـ عمليًا ـ مناخًا صالحًا للازدهار باسم المراجعة والوحدة الوطنية..

فبدلاً من إبراز التناقض الفادح الثمن فى جسم النظام وحله ثوريًا بالانحياز إلى جانب التقدم، علت الأصوات المتعفنة صائحة بأن الاشتراكية (التى لم تولد قط!) هى السبب، وأن البعد عن الدين (الذى لم يحدث قط) هو السبب، وأن السلاح الروسى (الذى لم يكن قد استخدم بعد) هو السبب فى كارثة يونيو ـ حزيران ١٩٦٧.

ورحل عبد الناصر عام ١٩٧٠.

وكان المد الرجعى على الصعيدين المحلى والعربى قد بلغ ذروته فى مجزرة أيلول الأردنية.

وانحل شكلاً صراع السلطة فى مصر بأحداث ١٤ و ١٥ مايو - أيار ١٩٧١..

وتدعمت الطبقة الجديدة بفئات قادمة من الريف، ومن ذكريات البورصة..

واشتعلت حركة الطلاب المصريين عام ١٩٧٢. لم تكن قد هدأت منذ فبراير - شباط ١٩٦٨، ولكنها بعد أن كانت رد فعل لمحاكمة قادة الطيران أضحت فعلاً ثوريًا ناقمًا على تحولات النظام الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ناحية اليمين.

ووقف المثقفون والمهنيون والعمال والفلاحون إلى جانب الطلاب. وبدت البلاد وكأنها على أبواب «إضراب قومى شامل».

وعادت نغمة «الدين» تحتل موقع الصدارة بأقلام غير متدينة كأنيس منصور ومصطفى محمود. ثم بدأت رياح الفتنة الطائفية تتحرك. ووقف أحد المحافظين - محمد عثمان إسماعيل - ليقول بالحرف الواحد: أعداؤنا ثلاثة هم المسيحيون والشيوعيون واليهود حسب هذا الترتيب. ووقف آخر فى ندوة علنية بقاعة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ليقول: نريد عقيدتنا ولا نريد سيناء. وبدا الشيخ عبد الحليم محمود يكتب فى «الأهرام» أن أرسطو هو السبب فى اندحار الدولة الإسلامية.

واحتدم الصراع..

وهرعت إلى توفيق الحكيم، وكان قد أتيح لى طيلة السنوات

العشر الماضية أن أتعرف عليه معرفة شخصية حميمة، ولكنى لم أره قط على هذه الدرجة من الانزعاج وعنف التعبير عن هذا الانزعاج كما رأيته فى هذه الأيام الأخيرة، بل الشهور الأخيرة وأصبح مكتبه فى الطابق السادس؛ حيث أقيم بالقرب منه فى «الطليعة» منتدى سياسيًا صغيرًا يؤمه الشباب والكهول والشيوخ ممن تؤرقهم قضية الوطن ليل نهار.

حين خلوت به ذات يوم من تلك الأيام العصيبة (٨ - ١ - ١٩٧٣) وأغلقت الباب ورفعنا سماعة التليفون، قال لى هذا الرجل الذيتجاوز السبعين فى حدة شاب لم يبلغ العشرين:

● هناك ناس فى بلادنا يريدون الرجوع بنا إلى مائتى سنة إلى الوراء.. ليس هذا تدينًا ما نشاهده فى التلفزيون ونسمعه فى الإذاعة ويمتد أثره إلى رحاب الجامعة وملابس الطالبات. إنه «هوس» و «دروشة» و «جنون» تعبيره السياسى المؤكد أن نتحول إلى مجتمع ضد المدنية والحضارة، مجتمع ينتمى إلى أكثر العصور ظلامًا.

كانت الكلمات تغلى على لسان توفيق الحكيم، وانفعالات وجهه تتبدل خطوطها وألوانها بسرعة الضوء، حتى أننى اضطربت على «قلب» الرجل من فرط الحماس المتوهج بالغضب.. ولكنه راح يزجرنى بعنف:

● قل لى، ماذا تفعلون أنتم يا شباب هذا الجيل؟

- أنت تعلم ماذا يصنع شباب مصر؟

قاطعنى بقسوة:

● هذا لا يكفى.. العبء كله على طلبة الجامعات، وحتى هؤلاء بدأت تتسرب بينهم التيارات الخبيثة التى تتلفع بثياب الدين وتخفى أظافرها المتعطشة للدم بقفازات حريرية من السلف الصالح. البنات فى كليات علمية كالطب والهندسة بدأن يرتدين «الطرحة» التى يلبسنها النساء فى الحج. هذا غير معقول بمصر التى يمتد تاريخها الحضارى إلى سبعة آلاف سنة.. سأدعو بأعلى صوت إلى تكوين جمعية لحماية الحضارة فى بلادى ضد أعداء الحضارة، أولئك الذين يتهدجون بالصلوات والعبارات نهارًا، وفى ظلام الليل تجدهم فى شارع الهرم والأحياء الراقية و «الشقق المفروشة».. ليس هذا «تيارًا دينيًا» بالمعنى الذى كنا نعرفه ضمن تيارات عديدة فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن.. ذلك أن «الدين» كتيار فكرى له حق الوجود كغيره من التيارات الفكرية.. أن ما أراه الآن ليس كذلك، أنه تيار مدمر لكل قيمة حضارية، بل هو مدمر للأخلاق نفسها، حتى بمعناها الدينى. ذلك أن الشواهد كلها تقول إن التحلل والتفسخ والعفن هو الوجه الآخر لعملة «الدولة الدينية» التى ينادى بها البعض الآن. الدين كان وسيظل علاقة شخصية بين الفرد وربه، أما الدولة فشىء آخر، والبشر وحدهم هم المسئولون عنها.

كان توفيق الحكيم يتدفق كسيل منهمر، حاولت أن أهدئ من «معدل سرعة التيار» قائلاً:

ـ ما تفسيرك لهذه الظاهرة حتى نضع أيدينا على الجذور، قبل أن نحاول البحث عن العلاج.. أن جمعية ثقافية لحماية الحضارة فكرة طيبة، ولكنها فكرة جزئية وعلوية فيما أرى.. أى أنها وثيقة الارتباط بنشاط الصفوة العقلية والفكرية إن جاز التعبير. لا بد من البحث عن أشكال أخرى تتصل بالأسباب العميقة، بالجذور.

فى هدوء طارئ أجابنى توفيق الحكيم:

● بالطبع، هناك تراكم سلبيات العشرين عامًا الماضية، رغم الإيجابيات التى لا ينكرها أحد، ولكن الهزيمة فى ٦٧ فجرت ما كان يغلى فى الباطن ودفعت به إلى السطح، هكذا دفعة واحدة. ولكن الهزيمة فى حياة شعوب كثيرة كانت نقطة تحول إلى الإمام والبناء، وبالتالى فالتيار الفكرى والسياسى المرشح بعد الهزيمة للتقدم بإنساننا هو عكس ما نراه الآن. الإنسان المهزوم قد يتشبث بالقوى الغيبية أمام الصدمة، أما أن تتحول هذه القوى إلى مشجب نعلق عليه خطايانا، فهو امتهان للعقل البشرى من ناحية، وتجاهل للأسباب الحقيقية التى أدت بنا إلى الهزيمة من ناحية أخرى. وصحيح أن مجموع الشعب مسئول عن الهزيمة، ولكن هذا تجريد وتبسيط يبتذل القضية المطروحة.. فنحن جميعًا مسئولون حسب موقع كل منا ودوره. ولا شك أن النظام السابق على ٢٣ يوليو كان آيلا للسقوط، وقد ورث النظام الجديد أعباء ثقيلة من الماضى.. ولكن الصحيح أيضًا هو أن

النظام الجديد رغم إنجازه الكثير قد ضل السبيل فى معالجة الكثير من القضايا وفى مقدمتها قضية الديموقراطية وقضية العدل الاجتماعى. أن حرية الفكر والتعبير جنبًا إلى جنب مع حرية الإنسان الاجتماعية لم تلق من الضمانات السياسية والتنظيمية ما يحول دونهما والعثرات التى تعاظمت قبل الهزيمة، وبعدها للأسف.

قاطعته فى اللحظة التى بدأت فيها نبرة صوته ترتعش:

- يظل سؤالك المهم قائمًا، وهو لماذا لم تكن الهزيمة نقطة إنطلاق نحو بداية جديدة تستوعب إيجابيات الماضى وتلفظ سلبياته وتبنى حياة جديدة؟

التفت فى مرارة نضحت على وجهه ابتسامة قصيرة ومتعجلة، وراح يقول بعينين زائغتين بين الباب والنافذة الواسعة المطلة على الشارع المضطرب بشتى التناقضات:

● إن جوهر الأخطاء ظل قائمًا، فرفع الشعارات وتغيير الأشخاص لا يجدى شيئًا إذا ظلت الأمور على ما هى عليه، بل إن ذلك هو الذى يفاقم المشكلات، فحركات الشباب المتوالية منذ ٦٨ هى أحد التعبيرات عن هذا التفاقم، وحياتنا الثقافية الخالية من المنابر الجادة هى التى تدفع كتابنا إلى نشر إنتاجهم فى عواصم عربية أخرى، وهى كذلك تعبير آخر عن هذا التفاقم، والأحداث الطائفية الغريبة على مصر وشعبها وحضارتها تعبير ثالث، وهكذا.. ذلك أن أصحاب المصلحة الحقيقية فى التغيير إلى

أمام ليسوا ممثلين تمثيلاً حقيقًا فى الأجهزة والمؤسسات القادرة على أحداث التغيير.. لذلك فنحن نستغنى باللافتات عن المضمون وبالوجوه عن الظهور وبالقمم عن القواعد. إن حماية نظامنا ـ كمجموعة من التشريعات الاقتصادية والاجتماعية ـ تتطلب عملاً ديموقراطيًا متواصلاً، يدعم هذا النظام بتطويره، لأن الوجود لا يعرف التوقف ولا يكف عن الحركة، فهى إما إلى الإمام وإما إلى الخلف.. حتى «محلك سر» هى حركة، وليست جمودًا .وأعداؤنا كثيرون: الاستعمار الأمريكى والصهيونية العالمية ودولة إسرائيل وبعض الأنظمة العربية، وبعض الطبقات الاجتماعية داخل حدودنا تستفيد من تقهقر الوضع، وهى التى تغذى التيارات المتخلفة التى ترتدى ثياب الدين.

وصمت توفيق الحكيم لحظات طويلة وحدقتا عينيه تتحركان فى محجريهما بسرعة مذهلة، ولكنها متسقة مع حركة يديه اللتين تتشاجران مع أصابع بعضهما البعض تشاجرًا عنيفًا، ثم قال:

● إننى أفكر جديًا فى التوقف عن الكتابة.

فاجأتنى العبارة فرحت أنا الآخر فى صمت مماثل، ووضعت رأسى على مرفقى.. كنت استرجع أشياء كثيرة وأفكر، ولكن اختلاط الألوان والخطوط كاد يبعدنى عن توفيق الحكيم ويقربنى منه أكثر فى وقت واحد. سألته:

ـ كيف؟

وأجاب:

● لست وحدى.. يجب أن يقف الكتاب رغم تباين اتجاهاتهم الفكرية صفًا واحدًا، ونكتب بيانًا للدكتور حاتم عما آلت إليه أوضاع حياتنا الثقافية ولفكرية والفنية.. ولن ننشر هذا البيان إلا إذا تجوهل ووضع فى سلة المهملات.. حينذاك لن ننشره فحسب بل نتوقف عن الكتابة التى تكاد ـ فى ظل هذا المناخ ـ تصبح بلا معنى.

رفعت وجهى إليه لأطالع سطور الزمن، وهى تعود بهذا «الشيخ» إلى زهرة العمر.. لم يكن فى ذلك الوقت البعيد إلا عصفورًا من الشرق، أما الآن فهو يعيش شبابه الحقيقى، يعيش عصره وآلام وطنه أكثر كثيرًا مما كان يعيشها فى تلك الأيام التى كان يعمل فيها نائبًا بالأرياف، وحاولت أن استأنف الحديث من زاوية أخرى:

ـ الديموقراطية والعدل الاجتماعى، هى الأخرى كلمات عامة.. أن الاحتلال الإسرائيلى لجزء من أراضينا هو الصورة المباشرة لجرحنا القومى، والخلاص من هذا الجرح الدامى يستوجب عملاً ديموقراطيًا وعدلاً اجتماعيًا، ولكن كيف؟ أن التوقف عن الكتابة قد يكون احتجاجًا لفترة من الوقت، وقد يصل إلى حدود العمل الفردى، لأن الكثيرين سيرفضون الفكرة من مواقع مختلفة، فوق أنها فكرة تجسد موقف الأدباء وحدهم.. ما الحل القومى الشامل؟

● يجب أن نعرف حدودنا كأدباء وكتاب، إننا لا نكتب برامج لأحزاب

سياسية، إننا ضمير الأمة فحسب، ولسنا أجهزة تنظيمية. معنى هذا الكلام بوضوح أنه ليس مطلوبًا منا ما قد يكون مطلوبًا من طوائف أخرى، ممارسة العمل السياسى المباشر وظيفتها. أما نحن فيكفينا التنبيه والتحذير والتوجيه والإيقاظ. الحل القومى الشامل بالنسبة إلىَّ يعنى فى المقام الأول أن تقف هذه الأمة وقفة رجل واحد - مهما كانت التناقضات الاجتماعية - فى وجه العدوان الهمجى على حضارتنا. ليس معنى ذلك أن نفتعل وحدة الصفوف، هذا أبعد ما يكون عن خاطرى، ولكنى أقول بالحد الأدنى من الاتفاق حول أهداف أخطر بكثير من المصالح الموقوتة لبعضنا. والزمن يجرى، وسواء شعرنا بذلك أو لم نشعر فهو يجرى.. حتى أن طبيعة القضايا تتغير من وقت إلى آخر. أن «المسألة المصرية» فى وقت مضى كانت تعنى جلاء الاحتلال البريطانى، وكانت أيامها الأمور واضحة فالملك والإنجليز وأشباه الإقطاعيين فى جانب والشعب كله فى الجانب الآخر. فى وقتنا لم تعد «المسألة المصرية» هى مجرد المناداة بتحرير سيناء، فتحرير الإنسان المصرى الراهن هو الطريق الطويل المرهق إلى تحرير سيناء، وليس العكس. تحرير الإنسان المصرى من الخوف والوهم والفقر هو دعامتنا الأساسية لتحرير سيناء. وأعتقد أن هذه المحاور الثلاثة هى الغالبة على كتاباتى الأخيرة كلها.

قال هذه الكلمات وتنهد بعدها تنهيدة عميقة كزفرة أسى، ولاحظته يحملق فى الفراغ ويمسك كتفى المقعد بكلتا يديه، ثم يصوب بصره إلىّ فى خط مستقيم، وهو يتمتم بما يشبه الهمس:

● لقد لاحظت ترددك فى قبول فكرة التوقف عن الكتابة، أو كتابة بيان لوزير الثقافة والإعلام فى شأن حياتنا الفكرية.. وقاطعته:

- لم أتردد ولكن أفكر معك.

● وأنا الآخر أفكر معك.. أن بيانًا عن أوضاع حياتنا الفكرية لا يكفى.. فالدنيا تهدر من حولنا وشبابنا خصوصًا طلبة الجامعات، يعانى أزمة عميقة.. وليست الأفلام الهابطة والمسارح الفارغة والمسلسلات الإذاعية المنحطة واختفاء المنابر الجادة إلا صورة جزئية لما نجتازه من مشكلات حادة، علينا أن نواجهها بشجاعة.

وصمت طويلاً حتى كدت أتصور أنه أتم فكرته، ولكنه مزق تخيلاتى حين قال فجأة:

● لماذا يقتصر البيان على حال الثقافة، ليكن بيانًا للمسئولين، ولكن عن الوضع السياسى والإجتماعى بأكمله، من خلال أحداث الطلبة الأخيرة.

وراح يهز رأسه كمن اكتشف شيئًا كان طول الوقت بالقرب منه.. واستمر يهز الرأس على إيقاع الأفكار التى تتنازعه، حتى استقرت أخيرًا على ذراعيه وقد تشابكا فوق مكتبه.

ربما كانت تلك لحظة أو الحسم فى حياة فكره وفنه.. ولكنه على أية حال لم يكن «يمثل»، كان يغلى. ربما كانت أكوام من الذكريات قد تكدست مرة واحدة، وربما كان ركامًا مختزنًا من التأملات

قد سطا على وعيه دفعة واحدة.. وربما.. وربما.. ولكن ما لا شك فيه أن توفيق الحكيم لم يكن وهو يفعل ذلك كله، من سكان البرج العاجى رغم إقامته فى هذا الجناح الذى ندعوه فى الأهرام بالبرج.

وإنما كان قلب توفيق الحكيم نابضًا بأحر الدماء السارية فى شرايين شعبه، وكان عقله يدق الدقات الثلاث السابقة على فتح الستار.

كان هذا الحديث بينى وبين توفيق الحكيم يوم ٨ - ١ - ١٩٧٣. بعدها بثلاثة أيام فحسب أصدر بيانه الشهير الذى لم يوقع عليه سوى المثقفين الوطنيين والديموقراطيين واليساريين. كان هؤلاء قد اكتفوا بالبيانات التى أصدرها فى نقابة الصحفيين أو تجمعات الأدباء، يناشدون فيها الرئيس أن يحول دون الطوفان القادم.

ولكننا صباح ٤ فبراير - شباط ١٩٧٣ فوجئنا بصدر الصفحة الأولى من جميع الصحف المصرية وقد ازدانت بأسماء مجموعة لامعة من الوجوه الثقافية الوطنية والتقدمية مع ديباجة قصيرة تعنى أنهم فصلوا من عضوية الاتحاد الاشتراكى، وبالتالى من أعمالهم الصحفية. وكان لافتًا للنظر أن الأسماء نشرت «ثلاثية» ورباعية هكذا: لويس حنا خليل عوض أو أمير إسكندر بولص. كان الأمر لافتًا للنظر من عدة زوايا.. فقد وردت هذه الأسماء ضمن القوائم المضبوطة مع جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥. ومن ناحية أخرى كان بعض الأسماء لا يمكن معرفته كاملاً إلا من ملفات

المباحث العامة.

كان الدكتور حاتم قد عاد إلى السلطة معززًا مكرمًا عام ١٩٧١ وكان يوسف السباعى قد أصبح سكرتير عموم الثقافة المصرية فى مختلف المجلات إلى جانب رئاسة مجلس إدارة دار الهلال محل أحمد بهاء الدين، وأصبح صالح جودت رئيسًا لتحرير «المصور». وتشكلت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى من بعض كبار المتهمين فى جنايات القتل والاختلاس والعمل المشبوه مع جهات عربية وأجنبية.

وهكذا راحت القوائم تصدر الواحدة بعد الأخرى بتنسيق مكتمل الأركان الثقافية والأمنية والسياسية حتى وصل عدد المعزولين ١١١ كاتبًا وصحفيًا يشكلون أعلى الكفاءات المهنية ـ بغض النظر عن اتجاهاتهم الناصرية والماركسية ـ فى الصحافة المصرية. يكفى أن نذكر لطفى الخولى ويوسف ادريس وأحمد بهاء الدين ورجاء النقاش وصلاح حافظ وعادل حسين وفيليب جلاب ونبيل زكى وحسين عبد الرازق وألفريد فرج وأحمد عبد المعطى حجازى وإبراهيم منصور وأمل دنقل وإبراهيم عامر وأمينة شفيق وخيرى عزيز وميشيل كامل وعشرات غيرهم حتى ندرك حجم المذبحة التى قامت بها أجهزة الثورة الثقافية المضادة.

وقد تنصَّل حاتم والسباعى وممدوح سالم وسيد مرعى ومن بعده حافظ غانم، كل على انفراد، من ارتكاب الجريمة، بل وبدا بعضهم كما لو كان ضد المجزرة ويعمل على إيقافها.

ولكن الأيام كشفت الأصابع الملوثة سريعًا.. فقد أصدر السباعى

بيانًا يدين فيه حركة الطلاب ويؤيد إجراءات الدولة، وقّع عليه إبراهيم الوردانى وصالح جودت وعبد العزيز الدسوقى وبعض الموظفين فى دار الهلال والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجمعية الأدباء. كذلك أصدر موسى صبرى بيانًا مشابهًا.

وأدهشنى، وغيرى، لحد الفزع أن بعض الأسماء التى كانت بالغة الحماس للبيانات، قد غابت عن القوائم.

وتذكرت أن توفيق الحكيم كان قد أعطانى همسًا مقالاً مطولاً بخط يده لأقرأه وأعيده له مشفوعًا برأيى. كان عنوان المقال «عودة الوعى» وهو مجموعة من الانطباعات الذاتية حول العشرين عامًا الأخيرة من حياة مصر والمصريين.

وقد أعدت المقال إلى صاحبه مع رسالة قصيرة قلت فيها ما معناه: أنت - يا أستاذى - لست مؤرخًا ولن تكون، فلو أنك كتبت هذه المعانى فى مسرحية لما اعترض عليك أحد من حيث الشكل، إذ إن المقال لا علاقة له بالبحث العلمى فهو ليس أكثر من نتف متناثرة لا يعوزها الشتات. أما من ناحية الموضوع، فإن أعمالك المسرحية تكذب أفكارك، فقد كانت «السلطان الحائر» ومن قبلها «إيزيس» ومن بعدها «الصفقة» و «الأيدى الناعمة» و «شمس النهار» و «الطعام لكل فم» من الأعمال الدرامية التى واكبت التجربة الناصرية على نحو يختلف تمامًا عما تقوله فى «عودة الوعى». بل إن مقالك فى «الأهرام» عند انتخاب عبد الناصر للرئاسة الثانية، يشكل نقيضًا متطرفًا لما تقوله فى مقالك الجديد. ولست أذكرك

بما كتبت حين مات! ولكنى سأذكرك بموقف عبد الناصر منك عام ١٩٥٧ حين راح أحمد رشدى صالح فى «الجمهورية» ينال من أدبك بأقصى ما يمكن أن يتهم به أديب وهو السرقة من غيره.. فما كان من الرئيس إلا أن قلدك أرفع وسام فى الدولة، ثم قال فى تصريح شهير «لقد تأثرت برواية عودة الروح تأثرًا بالغًا». هكذا لست أراك قد التزمت جانب الصواب فيما كتبت، ولست أرى داعيًا لنشره، وخاصة فى الوقت الراهن؛ حيث تحاول أطراف عديدة أن تغتال ما تبقى من إيجابيات المرحلة الناصرية.

ثم دعانى توفيق الحكيم لمناقشتى فلن أزد شيئًا على ما جاء فى رسالتى الموجزة. واحتدمت حركة الطلاب والمثقفين بعدئذ، وفوجئنا جميعًا باقتحام الحكيم للساحة، وفرحنا بحماسه المتوقد لما نادينا به آنذاك. وكان هو ـ إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ ـ الذى بادر بكتابة بيان المثقفين المصريين الذين أبعدوا عن منابرهم لهذا السبب، فيما عداه هو ونجيب محفوظ.

وحدث أن وقف اتحاد الكتاب اللبنانيين وقفة شجاعة فى مؤتمر تونس ضد القهر واضطهاد الرأى، فما كان من السيد يوسف السباعى ـ رئيس الوفد المصرى ولم يكن قد عين وزيرًا للثقافة ـ إلا أن طمأن أعضاء المؤتمر بأن الأمور تمضى فى طريق الحل. وفى اليوم التالى وصلت جريدة «الأهرام» وفى صدر صفحتها الأولى صورة كبيرة للرئيس السادات وهو يصافح توفيق الحكيم.. وتحت الصورة بضعة أسطر فهم منها أن الأمور تسير فعلاً فى طريق

الحل. ولكن توفيق الحكيم لم يذكر لأحد أنه فى هذا اللقاء قال للرئيس: لقد كتبت شيئًا عنوانه «عودة الوعى» فأجابه الرئيس أنه يعرف وبدرج مكتبه نسخة! ولم تكن بالطبع مفاجأة، فقد عمد الحكيم بعد مناقشتى وغيرى حول هذا المقال، إلى نسخة بالاستنسل وتوزيعه فى السر بغير توقيع. وكان صديقه ثروت أباظة من أكبر المتحمسين لتوزيع المقال.

ليس هذا مهمًا...

وإنما المهم أن أشرف العقول المصرية بقيت مهددة طيلة الأشهر السابقة على حرب أكتوبر فى حياتها واستقرارها وأمانها حتى أعلن الرئيس السادات عشية الحرب «العفو العام» عن الصحفيين والطلاب، بإعادتهم إلى أعمالهم وجامعاتهم.

ولم يكن ذلك ينهى الصراع، وإنما كان يعنى تأجيله.. ولكن ظاهرة خطيرة لم تحدث قط فى تاريخ مصر المعاصر، كانت قد حدثت خلال الأشهر الثمانية، وهى أن مجموعات متتالية من ألمع الوجوه الثقافية غابت عن أرض الوطن كلويس عوض ومحمود أمين العالم وعلى الراعى وأمير إسكندر ونبيل زكى وأحمد عبد المعطى حجازى وإبراهيم عامر وسمير كرم وميشيل كامل ومحمود عزمى وأحمد حجى وحلمى التونى وطاهر عبد الحكيم ومحيى اللباد وسعد التابه وسعد زغلول فؤاد وإبراهيم سعد الدين وأمين عز الدين ومحمد أنيس ومحمد عجلان وألفريد فرج وعبد الرحمن الخميسى وجلال السيد وغيرهم عشرات من الأدباء والفنانين

والصحفيين ممن دفعتهم ظروف العزل والقهر وانعدام الفرصة لخدمة الوطن بالرأى الحر وتولى «الخصيان والقردة والحواة»(*) مقاليد الأمور الصحفية والإعلامية، دفعتهم هذه الظروف مجتمعة لهذا «الاختبار» الجديد تمامًا على الساحة الثقافية المصرية. وقد كان اختيار الغالبية العظمى من هذه الأسماء هو «العمل» فى بقية عواصم الوطن العربى كبيروت وبغداد والكويت والجزائر. والقلة القليلة هى التى اختارت الهجرة إلى أوروبا وأمريكا.

ولم يكن ذلك أيضًا وأدًا للصراع، فقد تمسكت الأكثرية من الكتاب الوطنيين والتقدميين بمواقعها النضالية داخل مصر. كان يوسف السباعى قد أصبح وزيرًا للثقافة، وبالتالى تقدمت الحاشية المصطفاة من الجثث وألرمم المتعفنة، إلى مواقع المسئولية المباشرة فى مؤسسات وزارة الثقافة والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ودار الأدباء، بالإضافة إلى الأوضاع الجديدة التى طرأت على الصحافة المصرية منذ مذبحة لجنة النظام الشهيرة.

وأقبلت حرب أكتوبر المجيدة، ومعها أقبلت النتائج السياسية المعروفة. وكما أن هزيمة ٦٧ كانت فرصة اليمين للنيل من ثورة يوليو ومن الفكر الاشتراكى ومن المثقفين اليساريين ومن الصداقة العربية السوفييتية، فإن انتصار ١٩٧٣ كان أيضًا فرصة الرجعية لتسديد الضربة القاضية لقوى التقدم.

وكان إقصاء محمد حسنين هيكل عن «الأهرام» إشارة مبكرة إلى

(*) إشارة إلى قصيدة صلاح عبد الصبور الشهيرة.

ما يسمى بالعهد الجديد، فقد تم هذا الإقصاء وهيكل يحذر من الارتماء بين أحضان الولايات المتحدة الأمريكية. وكان مجىء على أمين بالذات إلى المقعد الشاغر فى «الأهرام» - ولو لبضعة شهور - إشارة حاسمة إلى هوية البديل.

بعدئذ أقبلت التفاصيل من قبيل استكمال الديكور وإعادة ترتيب البيت: عاد الاخوان أمين إلى قلعة شارع الصحافة الأمريكية والمسماة بـ «دار أخبار اليوم»، واستولى صالح جودت على «دار الهلال»، أما إبراهيم الوردانى فقد «ارتفع» إلى أحد مراكز المسئولية فى «الجمهورية»، وتوجه إحسان عبد القدوس إلى «الأهرام».

وبقيت قلعتان للفكر الوطنى والاشتراكى هما «الكاتب» و «الطليعة»..

واستخدم يوسف السباعى حقه «الشرعى» كوزير للثقافة وأقال أسرة «الكاتب» واستعدى السلطة على محرريها متهمًا أحدهم - صلاح عيسى - بالخيانة العظمى (!!)(*) وانفردت العصبة التى كانت فى الأمس القريب المتهم الأول فى مذبحة «الرسالة» و «الشعر» والفتنة الطائفية، انفردت بالمنابر الثقافية كلها: «الجديد» لرشاد رشدى، و «الثقافة» لعبد العزيز الدسوقى، و «الكاتب» لصلاح

(*) وقد اعتقلت قوات الأمن صلاح عيسى وبعض أفراد أسرة «الكاتب» بناء على توجيهات السباعى التى أثمرت مساعيها الحميدة فى حادث بور سعيد حين أراد بعض الأدباء الشباب عرض مسرحية لهم فقبض عليهم، وكذلك حين ذهبت المباحث للقبض على الكاتب سعد كامل ولما لم تجده علق الضابط المكلف قائلاً «غريبة، لقد أخبرنا يوسف بك السباعى أنه هنا»!.

عبد الصبور الواجهة الرخوة، و «الهلال» لصالح جودت..

أما «الطليعة» فقد أصبحت لها «ميزانيتها المستقلة» التى تضمن لها الموت البطىء.

ومنذ أوائل ١٩٧٥ حتى الآن تفرغ رجال الأمن فى القبض على الكتاب الوطنيين والتقدميين الذين اختاروا «الداخل» ميدانًا للنضال.

ويبدو المشهد الثقافى المصرى الراهن، وكأن مؤامرة ٦٥ قد أثمرت عام ١٩٧٥ فالمثقفون موزعون بين العواصم العربية والمعتقلات، أو هم فى بيوتهم أو على أسِرَّة المستشفيات «مرتاحون» من العمل (!!).

وهو مشهد مأساوى بحق، تبدو معه الأمور كما لو أنها آلت إلى انتهاء، وأن الصراع قد حسم لمصلحة اليمين والتخلف والغزوة الاستعمارية.

ولكنها ـ على وجه اليقين ـ نتيجة خاطئة! فالصراع ما زال محتدمًا، بل هو فى أوج الذروة يدخل رحاب مرحلة جديدة، فما يظهر لنا من فوق السطح لا يدلنا على ما يضطرم به العمق.

إن الماء يجرى تحت العشب.

خاتمة

لعل الحصيلة الختامية لهذه الصفحات القليلة تشير إلى جملة حقائق أبرزها:

١ - إن تناقضًا خطيرًا تجرثم فى بناء ثورة يوليو، بين الواجهات الرسمية للثقافة والمنتجين الحقيقيين للثقافة، بين القائمين على «السلطة» الثقافية، ومبدعى «الحياة» الثقافية، وأنه فى ظل شعار «أهل الثقة لا أهل الخبرة» اعتلت المواقع القيادية فى الثقافة المصرية عناصر مضادة بدرجات متفاوتة لحركة الثورة.

٢ - ثورة يوليو لم تكن مرحلة واحدة، بل عدة مراحل تطورت إليها الأمور بالفعل ورد الفعل.. وبالتالى فإن الكتاب والمثقفين الذين لمعوا فى مرحلة ما لاتساق أفكارهم مع مضمونها لا يجوز الإبقاء على سلطاتهم القيادية فى مرحلة أخرى تتناقض مع أفكارهم. ولكن، هذا هو الذى حدث بكل ما يتوالد عنه من مضاعفات.

٣ - إن الانتهازية الأخلاقية التى تدفع شاعرًا أو كاتبًا لأن يتلون كل

يوم بلون جديد قد استطاعت فى ظل الثورة أن تكون قيمة وقانونًا، وأفرخت مع الزمن صفًا طويلاً من المنتفعين غير المؤمنين، وهم فى أعماقهم ضد الثورة حتى إذا سنحت لهم الفرصة للتعبير الحر عن مكبوتاتهم وثبوا إلى مقدمة المظاهرة لتحطيم كل شىء!

٤ - إن غياب استراتيجية شاملة عن العمل الثقافى العام، وارتباطه بالتاكتيك السياسى المباشر والمرحلة، قد أفسح المجال واسعًا للارتجال والاعتماد على غير المتخصصين وغير الثابتين.

٥ - إن آفة الآفات هى أزمة الديمقراطية التى تسببت فى أن يكون القرار العلوى هو كل شىء، أما الأرض وما عليها فقد تركت للقهر والمصادفات.

الفهرست

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠
٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى
بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة
٥ ش السكة الجديدة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام
ميدان التحرير - الزقازيق
ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢



علوم
اجتماعية

سلسلة تعنى بنشر الحقول المعرفية، التى تهتم بدراسة الإنسان وتاريخه وطبيعته وبيئته وقدراته الإدراكية وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، بالإضافة إلى النواحى المختلفة من النشاط البشرى وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم، وأنساق ثقافاتهم وقيمهم فى علوم مختلفة مثل: التاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى والقوانين والتشريع والعلوم السياسية إلى غيرها من المعارف العامة، التى يترقبها المتلقى، ويحرص على متابعتها؛ لتساعده فى تكوين مرجعيته الثقافية العامة.




ISBN# 9789779118871
6 221149 052703

٤ جنيها